الكتاب الأول
فِي الحياةَ العقَليةَ

الباب الأول
فِي الدعوةَ الفاطميةَ

الفصل الأول
عقَائد الفاطميِين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين؛ فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعي، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة، ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها؛ والفاطميون فرقةٌ من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام، ووصاية علي بن أبي طالب(١)، وإمامة ابنه الحسن، فالحسين، فزين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق. فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثنى عشرية، وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الإسماعيلية، وهي الفرقة التي قالت بإمامة

(١) قال الفاطميون: إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الإمامة وأقل من مرتبة النبوة، فعلي بن أبي طالب في مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة؛ ولذلك لا يعدونه إمامًا من أئمتهم، بل قالوا: إنه وصي النبي، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن عليًّا وصي، وهو أول إمام من أئمتهم.

obeikandi.com

إسماعيل بن جعفر، فابنه محمد بن إسماعيل، فأئمة «دور الستر» وهم: عبد الله بن محمد، فأحمد بن عبد الله، فالحسين بن أحمد[١]، ثم أئمة دور الظهور، وأولهم عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية. وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استطعنا أن نطمئن إلى أن الفاطميين نظروا إلى أئمتهم على أنهم من البشر، يجري عليهم ما يجري على البشر من موت وحياة، فهم في ذلك يخالفون الغلاة من الشيعة الذين ألهوا عليًّا والأئمة من ذريته، وقالوا: إنهم أحياء يرزقون، ويخالفون الشيعة الاثنى عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكري، وأنه سيظل حيًّا حتى يعود ليملأ الدنيا عدلًا كما مُلئت جورًا. وقال الفاطميون: إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابني علي بن أبي طالب، فالأب ينص على ابنه في حياته. وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الفاطميين، وقد أولوا قول الله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليًا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور، تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب.

والإمام حجة الله على عباده، وهاديهم إلى الطريق القويم؛ فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام، وجعلوا ولاية الإمام إحدى أركان الدين ودعائمه؛ بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها، ولا يستقيم الدين إلا بها. قال المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في مجالسه: «فلو أن رجلًا عمل بفرائض

(١) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين، فمنهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين، ولعل السر الذي لم يُعرف كنهه إلى الآن هو في هؤلاء الأئمة المستورين، فالحديث عنهم أقرب إلى الخرافات منه إلى الواقع، فالإمام المستور عند الإسماعيلية لا يُعرف إلا لأقرب الناس إليه، وإمعانًا في الستر يلقبهم بلقبه ويسميهم باسمه ويكنيهم بكنيته. ومن هنا التبس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يقطعوا برأي فيه إلى الآن، وكل حديث عن هؤلاء المستورين يحتاج إلى أدلة لإثباته، ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة؛ ولذلك تعمدنا إغفال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أن نستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها.

الله تعالى وسُننه التي جاء بها رسوله كلها، ثم لم يقترن بعمله اعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآتي بها لم يغني عنه ما عمل فتيلًا، ولم يتبع غير أهل النار سبيلًا؛ إذ ولاية الرسول كالمركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض، فلا يصح وجودها إلا بوجوده، وإذا كانت هذه نصبة الرسول في حياته كانت نصبة من يوليه أمر دينه مثلها، ومثل ذلك نصبة من يليه ومن يلي من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد، وورثها ولد عن والد؛ إذ الولاية هي الأصل الذي يدور عليه موضوع الفرائض»[1]. وبهذا الرأي يقول الشيعة الإمامية جميعًا، وهو ما يتمايزون به عن جمهور أهل السنة، وأيد الشيعة الإمامية ومنهم الإسماعيلية هذا الرأي، بقصة تروي أن النبي بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند «غدير خم» في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، هناك أنزل عليه قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾، فذهب الشيعةُ إلى أن النبي الكريم صدع بأمر ربه وأمر بالصلاة، حتى إذا انتهى منها أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: **«ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»**. قالوا: بلي. قال: **«ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟»**. قالوا: بلي. قال: **«من كنت مولاه، فعليٌّ مولاه، اللّهم وال مَن والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»**. واعتبر الشيعة قول الرسول عليه السلام تبليغًا لأمر الله تعالى، ونصًّا صريحًا بوجوب اتباع علي وولايته، ومن بعده من ذريته المنصوص عليهم. وقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب هذه القصة وأتبعها بقوله: فلقيه -أي لقي عليًّا- عمر بن الخطاب، فقال: هنيئًا لك يابن أبي طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة[2].

---

(١) المجالس المؤيدية: ج١، ص٥ (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة).

(٢) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ص: ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣٠، والجزء الرابع ص: ٢٨١، ٣٦٨، ٣٧٠. والجزء الخامس ص: ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦١. ففي هذه المواضع نجد هذا

فالشيعة الإمامية على اتفاق مع الإسماعيلية في وجوب ولاية الوصي علي بن أبي طالب، ويروون عن النبي أحاديث كثيرة في شأن علي، مثل قولهم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». و«عليٌّ مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبي بعدي». و«أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي». و«النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض». و«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». و«أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تركها غرق». و«إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»[١].

واشترك الفاطميون في رواية هذه الأحاديث وغيرها. واتخذ الفاطميون دليلًا آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبقوا دور محمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لكل نبي وصيًّا يكل إليه أمر المؤمنين، وأن الله تعالى هو الذي يوحي إلى نبيه بإعلان من اختاره الله وصيًّا لنبيه، وخليفة له، فكان وصي آدم هابيل، ووصي نوح ابنه سام، ووصي إبراهيم ابنه إسماعيل، وكان وصي موسى أخاه هارون، ووصي عيسى ابن مريم حواريه شمعون الصفا -سمعان بن يونا المعروف بالصفا[٢]- فوجب أن يكون لمحمد وصي، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء السابقين، وأن الله تعالى اختار علي بن أبى طالب لمرتبة الوصاية، ويخيل إليَّ أن الفاطميين أخذوا هذا الرأي مما جاء في إنجيل يوحنا في مواضع متعددة أن سمعان بن يونا هو الذي سماه المسيح بطرس أو صفا، وأمر المسيح أن يرعى بعده خرافه؛ أي جماعة المؤمنين، فصبغ الشيعة هذه العقيدة بالصبغة الإسلامية، واتخذوا لها أدلة من القرآن والأحاديث؛ على أن الإسماعيلية الذين جعلوا عليًّا وصيًّا للنبي جعلوا عليًّا من ناحية أخرى يشارك النبي في كل

الحديث عن النبي عليه السلام، وفي سنن الترمذي «الكتاب السادس والأربعون الباب التاسع عشر» قول النبي لعلي بن أبي طالب: «أنت ولي كل مؤمن بعدي».

(١) راجعْ ذلك كله في كتاب: بحار الأنوار، وفي: المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة.

(٢) الفترات والقرانات لجعفر بن منصور اليمن: ص١٢ ب، نسخة خطية بمكتبتي الخاصة.

صفاته وخصائصه وفضائله، إلا في مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبي وحده، فكل الآيات القرآنية التي جاءت في النبي كقولة تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، و﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ إلى غير ذلك من الآيات، هي في محمد وفي علي أيضًا، بل جعلوها في كل الأئمة المنصوص عليهم من نسل علي. ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا في تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يشير فيها إلى علي والأئمة من ذريته، مثل قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾، وقوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾، وقوله: ﴿وأولي الأمر منكم﴾، وقوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وغير ذلك. فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى علي بن أبي طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من البشر. فمحمد وعلي عندهم صنوان متشابهان في كل الصفات إلا في مرتبة النبوة التي أطلقوا عليها اسم «مرتبة الاستيداع»، فقد اختص بها محمد عليه السلام، على حين اختص علي بمرتبة الوصاية والإمامة التي أطلقوا عليها اسم «مرتبة الاستقرار»[١]؛ ولذلك يروون أن النبي قال: «لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية، كلما ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم، حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب، فانقسم ذلك النور نصفين في عبد الله وأبي طالب، فقال الله تعالى: كن يا هذا محمدًا، ويا هذا كن عليًّا»[٢]. ولهذه العقيدة التي تجعل من علي شريكًا وشبيهًا للنبي في كل شيء قال الإسماعيلية بعصمة الأنبياء والأوصياء والأئمة، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء ولم يئولوا

(١) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع في كتاب «ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة».
(٢) المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة.

قصص الأنبياء هذا التأويل الذي نراه في كتبهم[١]، إلا لإثبات عصمة أئمتهم، ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه العصمة، إنما هو رأي جميع فرق الشيعة، وكان موضوع عصمة الأنبياء من موضوعات الجدال بين علماء الكلام.

ولعل المشاركة الكبرى التي جعلوها بين محمد وعلي هي عقيدتهم فالتأويل الباطن، وهو العلم الذي خصوا أنفسهم به وسموا من أجله بالباطنية، فقد جعلوا محمدًا هو صاحب تنزيل القرآن، وجعلوا عليًّا صاحب تأويله؛ أي أن القرآن الكريم أُنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس، أمَّا أسرار الدين وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد، ولكنه خص بها عليًّا وأبناءه من بعده دون غيرهم من البشر، وأنَّ عليًّا وأبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار. أخذ الإسماعيلية بعض آيات القرآن الكريم دليلًا على عقيدتهم في وجوب التأويل كقوله تعالي: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾، وقوله: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾، وقوله: ﴿وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي ذهبوا في تفسيرها إلى أن الله تعالى جعل لدينه تأويلًا خاصًّا، يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلق الإسماعيلية عليهم لقب أهل الظاهر أو العامة.

واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ على أن

(١) راجع كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان، نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وكتاب أسرار النطقاء، وكتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور اليمن، والمجالس المؤيدية، وكلها نسخ خطية بمكتبتي الخاصة.

الأنبياء والأوصياء والأئمة هم الراسخون في العلم، وهم الذين يعلمون تأويله، وذهب علماؤهم إلى أن قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ نسق على الله؛ وقوله:﴿يقولون آمنا به﴾ أخرجوه مخرج الحال؛ بمعنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به؛ إذ لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه لكان مستحيلًا منهم أن يقولوا آمنا به؛ لأن الإيمان معناه التصديق، والتصديق بالشيء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به، ولا يجوز تصديق المرء بما لم يعلمه. ثم إنه ليس يخلو من أن يكون النبي علم بتأويل ما أتى به أو لم يعلم، فإن كان علم به بطل الوقف بعد لفظ «الله» في الآية السابقة، ووجب دخول النبي في شرط من علمه، وهو أول الراسخين في العلم وأفضلهم، وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم؛ وإن كان النبي لم يعلم فإرسال الله تعالى إياه بشيء إذا سئل عنه لا يعلمه، خارج عن الحكمة والرسالة[1]. فالنبي كان يعلم تأويل القرآن، ومن يقوم مقام النبي في كل عصر يعلم هذا التأويل أيضًا، وضربوا مثلًا بقصة موسى مع الرجل الصالح التي وردت في القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرف كنهها نبي ناطق من الأنبياء، وهو موسى، فقصة موسى هذه دليل عندهم على أن العامة من المسلمين أضعف وأقصر من النهوض بأعباء تأويل القرآن الذي اختص به الوصي والأئمة، وفي ذلك يقول المؤيد في الدين:

وإن أجرنا ظاهر الكلام ... في ذاك أسلمناه للخصام
ففي اختلافات القرآن كثرة ... من كل قول مع كل زمرة
يا قوم سر الملكوت هذا ... هذا يجعل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الخضرا ... قال معي لن تستطيع صبرا
وقال موسى سوف ألفى صابرا ... فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا

(١) المجالس المؤيدية في ج٢، ص٥١.

تـــدبروا القـــصة مـــاذا يمـــا ... مـــن قـــصها إن لم تكونـــوا نومـــا
لعلكـــم أن تحـــسبوا ســـمرا ... إذن أســـأتم النفـــوس النظـــرا
مـــن كـــان ذا عقـــل وذا عينـــين ... يبلـــغ حقًّـــا مجمـــع البحـــرين[١]

ولهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضًا من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾، وفي قوله: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين* وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾، فذهبوا إلى أن مثالة الدين تُؤخذ من خلقة السماوات والأرض، وتركيب الأفلاك، وجميع ما يُتأمَّل مما خلقه الله تعالى، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حمله القرآن الكريم، فآيات القرآن إذن في حاجة إلى مَن يُخرِج كنوز هذه المعاني[٢]، وبناء على هذه الطريقة التي اتخذوها لأنفسهم للتأويل، وهذه القاعدة التي يستدلون بها في هذه الطبيعة والمخلوقات على الدين؛ جعلوا المخلوقات قسمين: قسم ظاهر للعيان، وقسم باطن خفي، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن، وسموا الباطن ممثولًا والظاهر مثلًا، ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم «نظرية المثل والممثول»[٣]، وقد أخذت هذا الاسم مما كتبه دعاة الفاطميين، فالمؤيد في الدين يقول في مجالسه: «خلق الله أمثالًا وممثولات؛ فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول، وإن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى، وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم، لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل، وإن قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي ممثول تلك الأمثال»[٤]. وقول صاحب المجالس المستنصرية: «يا معشر المؤمنين، إن الله

(١) «القصيدة الأولى» من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.
(٢) المجالس: ج٢، ص٥٢.
(٣) راجع نظرية المثل والممثول وأثرها في شعر مصر الفاطمية، بحث قرئ في مؤتمر المستشرقين الحادي والعشرين في باريس يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٨.
(٤) المجالس المؤيدية: المجلس الثامن من المائة الثانية.

تعالى ضرب لكم الأمثال جملًا وتفصيلًا، ولم يستحِ من صغر المثال إذا بين به ممثولًا، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلًا»[١]. ويقول المؤيد في الدين:

اقْصُدْ حمى ممثوله دون المثل ذا إبر النحل وهذا كالعسل[٢]

وإذن فالقاعدة في التأويل عند الإسماعيلية هي تطبيق نظرية المثل والممثول، فظاهر القرآن مثل وباطنه ممثولات، والظاهر: هو هذه المعاني التي يعرفها العامة، وينطق بها علماء أهل السنة . والباطن: هو هذه المعاني التي يستخلصها الوصي والأئمة من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين. وعلى الرغم من أن الإسماعيلية أتوا بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والممثول، فإن هذه النظرية وإن كانت قد صُبغت بالصبغة الإسلامية، فإنها هي نظرية المثل الأفلاطونية القديمة، أدخلوها في عقيدتهم بعد أن غيَّروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم الإسلامية.

ويُخيل إليَّ أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذي نراه عند الإسماعيلية لم تُعرَف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التي ظهرت في عصر المأمون العباسي وبعده، وبعد أن تُرجمت الكتب الفلسفية اليونانية، فالمعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية، وعلى الأخص فيلون وتلاميذه، حاولوا تأويل التوراة تأويلًا باطنيًّا -إن صحَّ هذا التعبير- وأن القديس أوغسطين هو أول مَن حاول تأويل الإنجيل تأويلًا باطنًا كذلك، وجاء الإسماعيلية وأخذوا فكرة التأويل مما نُقِل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة، ولكنهم صبغوا تأويلهم بالصبغة الإسلامية كعادتهم دائمًا في كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية، ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخلوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة الأجنبية، فقد ظهرت في تأويلاتهم

(١) المجالس المستنصرية: ص٩٨، ٩٩ (طبع دار الفكر العربي).

(٢) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

آثار هذه العلوم والفلسفة كما ظهر تأثرهم بالعقائد والأديان القديمة التي غمرت العالم قبل الإسلام وبعده.

ويُخيل إليَّ كذلك أنهم لم يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إمعانًا منهم في زيادة شرف علي بن أبي طالب والأئمة، وخصهم بميزات تبعدهم بعض البُعْد من سائر البشر، فكأنَّ الولاية هي المحور الذي تدور عليه جميع العقائد الفاطمية، فتأويلاتهم وفلسفتهم في الإبداع والخلق وكل عقيدة في النفس والعقل كلها تنتهي إلى نتيجة واحدة هي الوصي والأئمة، ففي التأويل الباطن أن «وجه الله» و«يد الله» و«جنب الله» هم الأئمة، والشمس محمد، والقمر علي، والأئمة والأهلة هم الأئمة، بل ذهبوا كما ذهب بعض فلاسفة الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة «اللوجوس»، فقالوا: إنَّ الكلمة هي «كن» من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾، وكلمة «كن» حرفان: كاف ونون، ولكنها في التأويل الباطن مثلان للحدود الروحانية المقربة إلى الله؛ فالكاف رمز للعقل الأول أو «القلم» وهو أقرب الحدود إلى الله، وهو الذي ورد فيه الحديث النبوي الذي رواه البخاري: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: أقبلْ فأقبلَ. فقال له: أدبرْ فأدبرَ. فقال: بعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا هو أعز عليَّ منك، بك أثيب وبك أعاقب ... إلخ». والعقل الذي ذُكر في ظاهر القرآن بالقلم، ولأنه أقرب الحدود إلى الله تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سُمِّي بالسابق. أما النون فهي رمز للنفس الكلية، وهي التي رمز إليها في القرآن باللوح وسُميت بالتالي، وبناء على نظرية المثل والممثول يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن؛ فالإمام هو مثل السابق، وحجته مثل التالي، وكل خصائص العقل الأول «السابق» جُعلت للإمام، فمثلًا نرى الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن كل الصفات والأسماء، وقالوا: إن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الأول «السابق»، وإن الله سبحانه وتعالى على أن يتصف بصفة، وأنه ليس أيسًا وليس لبسًا، إنما كل ما

جاء في القرآن الكريم من صفات الله فهي صفات العقل الأول «السابق»، وإذن فهذه الصفات يُوصَف بها أيضًا مثل العقل الأول في العالم الجسماني وهو الإمام، وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

مـا شـئتَ لا مـا شـاءت الأقـدارُ فـاحكمْ فأنـتَ الواحـدُ القهـارُ

فقد فهم القدماء من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هانئ أنه يؤله إمامه، وحكموا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية، بدليل هذا البيت وأمثاله، ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليهًا ولا غلوًّا في العقيدة، وسنتحدث عن ذلك كله في باب الشعر.

وإذن فالتأويل الباطن عندهم لسبب واحد هو إغداق صفات التمجيد والتفخيم لأئمتهم. على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضرورته، قالوا أيضًا بالظاهر معه، فلا يُقبل الظاهر دون الباطن، ولا ينفع الباطن دون الظاهر، «فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعا انقدحت الفوائد وعُرفت المقاصد»[١]. ومَن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن، أو بباطن دون ظاهر، فهو ممن يعبده على حرف[٢]، والظاهر عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والجهاد في سبيل الله، فيجب على المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية الظاهرة كما ورد في كتاب الله وما سنَّه رسول الله، وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن بعلم الباطن الذي هو العبادة العلمية التي خص بها الوصي والأئمة، فالفاطميون إذن لم يعملوا على طرح الأديان وإبطال العبادة كما وهمَ الكتَّاب والمؤرخون الذين تحدثوا عن الفاطميين؛ بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد في الدين:

(١) المجالس المستنصرية: ص٣٧.

(٢) المجالس المستنصرية أيضًا: ص٢٩.

فإننـــا لأهـــل علـــم وعمـــل   لله دنـــا بهـــا عـــز وجـــل[1]

وشاركوا غيرهم من المسلمين في هذه العبادة الظاهرة، ودعوا إليها دعواتهم إلى عباتهم الباطنة، وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد، وكتاب المجالس المستنصرية للداعي ثقة الإمام علم الإسلام؛ وجدنا أن الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنة وفقه مالك على وجه خاص؛ مع أن الإسماعيلية لا يأخذون في أحكامهم الشرعية بالرأي ولا بالقياس، إنما يأخذون بالأحكام التي يشرعها الإمام، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل السنة إلا في بعض مسائل فرعية، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم، فقد كانت هذه المسألة من أهم المسائل التي أثارت سخط المسلمين على الفاطميين؛ ذلك أن الفاطميين لا يبدءون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة، فقد وجد الفاطميون أن الهلال إذا غمَّ في بلد من البلاد بسبب سحاب أو غيره، فقد يظهر في بلد آخر قريب، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر، وكثيرًا ما يحدث اضطراب في بدء الصوم في البلد الواحد، فيقع ما يسمى بيوم الشك، وهو ما نشاهده كل عام إلى اليوم؛ ومن ثمَّ لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب، فعملوا تقويمًا قمريًّا يحسبون بمقتضاه سير القمر، ويقدرون منازله حتى يعرفوا أن هلال ومضان قد أهل حقًّا، فجعلوا الشهور العربية شهرًا تامًّا، والتالي له ناقصًا دائمًا، وبذلك أصبح شعبان ناقصًا دائمًا ورمضان تامًّا دائمًا، ومن هذا التقويم الدقيق عرفوا متى يبدأ رمضان ومتى ينتهي، دون الرجوع إلى رؤية الهلال ورؤية نظر؛ بل جعلوا قول النبي الكريم: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته**» أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار. وهذا التقويم الفاطمي جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين، ويبدءون عيد الفطر قبل جمهور

---

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

أهل السنة بيوم أو يومين، ومن هنا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهم حقيقة دعوتهم، ورَمَوْهم بالخروج عن الجماعة وعن الإسلام.

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة، بل بين الشيعة عامة وبين السنيين: مسألة ميراث البنت، فالشيعة يورثون البنت كل ما تركه الأب إذا لم يترك ولدًا ذكرًا، ومن الخلافات أيضًا مسألة مسح الرجلين في الوضوء؛ فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين، ومن أهم الخلافات التي بين الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثاني عشر حيٌّ يُرزق منذ اختفى في السرداب، وأنه سيظهر ليملأ الدنيا عدلًا كما مُلئت جورًا. على حين يذهب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشر، يجري عليه ما يجري على البشر من حياة وموت، فمن السخف أن يقال: إن إمامًا يعيش طول هذه المدة. ومن الخلاف أيضًا قول الاثنى عشرية بتحليل زواج المتعة، على حين يحرمه الإسماعيلية.

ولم يذهب الفاطميون بالقول بالرأي كالمعتزلة، ولا بالقياس كأهل السنة؛ بل رفضوا الأخذ بالرأي والقياس، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المعصوم وإلى علوم أهل البيت التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر، فعلم الباطن الذي خص به الأئمة دعاهم إلى القول بأن إعجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إعجازه من ناحية اللفظ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه، ولكن إعجازه يظهر بما يحتويه من معانٍ، وفي ذلك يقول المؤيد:

إنْ كان إعجازُ القرآن لفظًا ... ولم يَنَلْ معناه منه حظا
صادفتم معقوده محلولًا ... من أجل أن أنكرتم تأويلا

وفكرة عصمة الإمام دعتهم كما دعت الشيعة عامة إلى القول بعصمة الأنبياء، أما ما ورد في القرآن الكريم عن معاصي الأنبياء، فقد ذهبوا في تأويلها

إلى أوجه لم يعرفها المفسرون، ولا أدري من أين أَتَوا بها. راعِ ما كتبناه عن تأويل الأنبياء في كتاب «ديوان المؤيد في الدين».

وهكذا ترى الفاطميين لا يكادون يختلفون في عبادتهم العملية الظاهرة عن غيرهم من المسلين؛ فهم يحرِّمون ما حرمه الله تعالى، ويتجنبون المآثم والمعاصي، ويحللون ما أحله الله تعالى للمسلمين، ولكن التأويل الباطني للإسماعيلية هو الذي جعلهم يوسعون الهوة بينهم وبين غيرهم من المسلمين، فقد أرادوا بتأويلهم الباطني إسباغ الفضائل على الأئمة، فجعلوا يناسبون العقل الأول، وصفات الله وأسماؤه الحسني المذكورة في القرآن الكريم جعلوها للعقل الأول، وتبعًا لذلك جعلوها للأئمة، أما الله سبحانه وتعالى فقد نزَّهوه عن كل صفة، ووحدوه التوحيد كله.

نوحِّـــــــد اللهَ ولا نـــــــــشبه فقــد انتفــت عنَّــا بــذاك الــشبه[1]

فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه، فالجسم الترابي يعود إلى التراب، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها ويناسبها، فتصبح نفس الإمام عقلًا من العقول المدبرة للعالم، فلا تتناسخ ولا تتلاشى؛ لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم، ولا يقولون بالتلاشي، بل ناقشوا أصحاب هذه العقائد وسفهوا آراءهم، كما كفروا الغلاة الذين ألهوا عليًّا والأئمة من أبنائه. قال المؤيد في الدين داعي الدعاة:

فكيـــــف شرع الأنبيـــــاء نـــــدفع ومـــا لنـــا إلا النبـــي مرجـــع
بنــــوره في الـــــدرجات نرتقـــــي وبــــالكرام الكـــــاتبين نلتقـــــي
يـــا رب فـــالعن جاحـــدي الـــشرائع وارمهـــــم بـــــأفجع الفجـــــائع

(١) من القصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعاة.

obeikandi.com

والعن إلهي مَن يري الإباحة ... بلعنة فاضحة مجتاحة
والعن إلهي غاليًا وقاليًا ... ولا تَذَرْ في الأرض منهم باقيا
يا رب إنَّا منهم براء ... هم واليهود عندنا سواء
فأخزهم وأخزِ مَن رمانا ... بريبةٍ ولقه الهوانا[1]

ويقول في الرد على القائلين بالتلاشي والتناسخ:

أيها المدعي التلاشي حمقًا ... ذا الذي تدعي عليك وكيل
أترى هذه الصنائع طرًّا ... عبثًا، ما لصانع محصول
حركات الأجرام قل لي لماذا؟ ... ولماذا طلوعها والأفول؟
ألها في مجالها الفعل أم لا؟ ... فبغير إذن يجوز تجول
إن تقل ذاك فعلها باختيار ... أنكرت منك ما ادعيت العقول
إن فيما دنا من الماء والنار ... على ما علا لنا التمثيل
ولئن قلت: ذاك غير اختيار ... قلت: كل مدبر محمول
فإذا كان هكذا ثبت الحامل ... الفاعل اللطيف الجليل
فإذا كان فاعل متقن الفعل ... وما دونه له مفعول
فالتلاشي لفعله مستحيل ... جلَّ عما به عليه تحيل
والذي قال إنه النسخ والفسخ ... وماذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطا ... ت ومن حيث بدؤها مسئول
فلئن كان يثبت الأصل منها ... فكذا نحوه يكون القفول
ولئن كان نافيًا قيل مهلًا ... فلهذي المشاهدات أصول
فثواب يكون بالأكل والشرب ... فذاك العذاب والتنكيل[2]

(١) من القصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعاة.
(٢) القصيدة الخامسة من ديوان المؤيد داعي الدعاة.

ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإباحة المطلقة، والقول بالتناسخ والحلول، إلى غير ذلك من الاتهامات التي أظهر البحث الحديث أن الفاطميين براء منها، على أني لا ألوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة الفاطمية على أنها مباينة للإسلام وتوحيد الله، بقدر ما ألوم بعض الغلاة من الدعاة الذين غيروا المذهب الفاطمي، وخرجوا به عن منهجه الصحيح، حتى اضطر الأئمة إلى إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة، وتحذير الناس من ضلالاتهم. نذكر من هؤلاء الدعاة: «علي بن الفضل» الذي كان من أسبق الدعاة في أواخر دور الستر الأول في إظهار الدعوة في اليمن، ولكنه ضلَّ طريق رشده، فتبرأ منه الإمام وطلب من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه ويمحو أتباعه[١]، ونذكر أحمد بن الكيال الذي كان داعيًا للإسماعيلية فغير المذهب ودعا لنفسه[٢]، والقرامطة الذين استباحوا المحرمات، ونادوا بالإباحة؛ فاضطر عبيد الله المهدي قبل ظهوره بالمغرب إلى عزلهم عن الدعوة، فحاربوه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا متاعهم، فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة بمصر، إلى أن رحل إلى شمال إفريقيا حيث أقام دولته[٣]، واستمر العداء بين القرامطة والفاطميين ردحًا طويلًا من الزمان، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذُكر في كتب التاريخ، وكذلك نقول عن فرقة الدرزية التي ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله، فأمثال هؤلاء الدعاة كانوا أسلحة ماضية ضد المذهب، حتى قال القاضي النعمان: «ذكر المعز لدين الله رجلًا أصابه بلاء عظيم في نفسه، ووصف ما صارت حاله إليه، وكان هذا الرجل قد ألحد في أولياء الله، وغلا

(١) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة)، وكتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليماني: ص٢١ وما بعدها.

(٢) راجع الشهرستاني.

(٣) راجع افتتاح الدعوة، واستتار الإمام، وسيرة جعفر الصاحب.

في دينه، وقد كان قلد شيئًا منه وناله بسبب ذلك من سخط الأئمة ما نعوذ بالله منه، فقال المعز لدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه: ما ألحد أحد فينا، ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاء يكون نكالًا، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد وأبقى.

ثم ذكر من تجاوز هذا الرجل وتعديه، وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين ما يطول ذكره. قال: وتقرَّر عند المنصور بالله أنه يقول: عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال، ولنا من أوليائنا في الدين مَن تزول السماوات والأرض، ولا يحول ولا يزول. فأعظم ذلك المنصور بالله من قوله، وأحضر جماعة من الأولياء، فذكر ذلك لهم عنه ولعنه، ثم قال المعز لدين الله: أعظم آيات موسى فلق البحر، فهذا الشقي ادَّعى فوق ذلك لنفسه، وهو ينسب إلينا، ويدَّعِي علمنا ومذهبنا وقولنا. نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله، وما ينسبه إلى نفسه، أن ينسب إلينا وإلى مَن يتصل بنا. ثم قال: سمعت القائم بأمر الله يقول: إنما أراد الدعاة إلى النار الذين انتسبوا إلينا بما ينحلونا إياه أنا نعلم الغيب وما تخفي الصدور، وأشباه ذلك مما افتروه علينا ونسبوه إلينا أن يجعلوه عدة لنفاقهم... إلخ»[١]. وقال حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرماني: «إنَّ أعظم الفِرَق ضلالًا فرقة الغلاة؛ ضلَّتْ وأضلتْ غيرها، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة»[٢]. ويقول المؤيد في الدين: «استعيذوا بالله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة، يستوطئون مركب الإباحة، ويميلون ميل الراحة، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين، فإذا عرف سقطت الصلاة، وأن الزكاة إشارة إلى مثله، فإذا عرفت بطلت الزكاة، وأن الصوم هو السكوت عن إفشاء سرهم

(١) المجالس والمسايرات: ورقة ٨٦م، (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة).
(٢) كتاب تنبيه الهادي والمستهدي، (نسخة خطية بمكتبتي).

إلى غير أهله، فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة إلى الصوم واحتمال كدِّه، وأن النهي عن شرب الخمر هو عن موالاة بعض الأضداد، فإذا هم كفوا كان شربها حلالًا سهل القياد، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد، ويردوا من مهاوي الردى في تحليل المحرمات شر ورد، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه إلى أئمتهم بالبغضاء، ولم يزل مَن مضى من أمير المؤمنين علي والأئمة من ذريته إلى إمام الزمان براء إلى الله تعالى ممن هذه سبيله سرًّا وجهرًا، ينشرون في صحف الخزي على من دان دينهم...إلخ»[1]. فهؤلاء الدعاة الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة الإسماعيلية، كانوا سببًا في أن يذهب المؤرخون القدماء ومَن تبعهم من المحدثين إلى فساد عقيدة الفاطميين، ومن يتعمق في دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت في كتب دعاتهم وعلمائهم -وهي الكتب التي لا يقر بها إلا مَن بلغ درجة رفيعة في الدعوة- يجد الفاطميين براء من كثير مما نُسب إليهم، ولولا هذا التأويل الباطني الذي جعلوه قوام عقيدتهم، لَتساووا مع غيرهم من المسلمين في كل شيءٍ، ولما وجد خصومهم مطعنًا في عقيدتهم.

والذي ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة التي عُرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد، بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة، واستطاع الفاطميون أن يُخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة للآراء الإسلامية، ويصبغونها بالصبغة الإسلامية، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين، ويردها إلى أصولها القديمة، فمثلًا قال قدماء المصريين بأن روح الملوك تنتقل إلى العالم العلوي، وتصبح من الآلهة، فقال الفاطميون: إن روح الإمام تصبح مَلَكًا من الملائكة وعقلًا من العقول الروحانية المدبِّرة لعالم الكون والفساد، وذهب

(١) المجالس المؤيدية.

بعض فلاسفة اليونان إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى شيئًا إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشعل، فقال الفاطميون: إنَّ العقل البشري في تبصُّره لا يستطيع الوصول إلى معرفة شيء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الأئمة، ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضًا: إنَّ النفس كانت صفحة بيضاء، فإذا حلت في جسم نُقِش عليها ما اكتسبه الإنسان، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فقال الفاطميون بهذه المقالة. وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي، وخلق العالم بواسطة الكلمة؛ مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جعلت الكلمة هي العقل الكلي، على حين قال الإسماعيلية بأن الكلمة هي السابق والتالي؛ أى القلم واللوح، وأنها هي كلمة كُن من قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾، كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة الفيوضات ومراتبها، بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحانية والجسمانية، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل، وعن الزرادشتية القديمة مذهبَ التخميس، وعن الفيثاغوريين القدماء مذهبهم في التوحيد وجَعْل الأعداد أصولًا لعقائدهم، بل كان نظام دعوتهم هو النظم الفيثاغورية عينها. وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيرًا من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى، على الرغم من صبغ هذه الآراء والعقائد بالصبغة الإسلامية، حتى ليتوهم الباحث في كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أي علم أو رأي دخيل.

وخلاصة القول في العقائد الفاطمية: أن الولاية هي محور هذه العقائد، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده أكثر من أي شيء آخر، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب، ويقومون بفرائض الدين، ويحرِّمون ما حرمه الله، ولا يقولون بالتعطيل أو الإباحة، ولم يعتنقوا التناسخ أو الحلول أو التلاشي؛ غير أنهم قالوا

بأدوار الأنبياء، فلكل نبي دوره، ويأتي النبي الذي بعده ينسخ شرع النبي قبله، فلما جاء دور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى، وأن ما حدث في أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله في دور محمد، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لوصي محمد والأئمة بعده، وأولوا ذلك كله تأويلًا يتفق مع عقيدتهم هذه، ونراه واضحًا في أشعار شعرائهم ورسائل كتَّابهم، على النحو الذي نراه في باب الشعر من هذا الكتاب.

obeikandl.com

الفصل الثاني
مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتَّبَ الفاطميون لدعوتهم نظامًا دقيقًا محكمًا لا أكاد أجد له مثيلًا في تاريخ الدول والدعوات، حتى في عصرنا هذا الذي عُرِف فيه للدعاية قدرها ومكانتها، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم، ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لآرائهم في الأقطار الإسلامية، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي، ولم تكن لهم دولة لها حكومتها. أمَّا الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها، بل لا تزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين مَن ورث دعوتهم، وهم المعروفون بالبهرة، والمعروفون بالإسماعيلية الأغاخانية.

وكما أنهم في تأويلهم الديني يطبقون نظرية المثال والممثول التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، وكذلك نراهم قد طبقوا هذه النظرية أيضًا على نظم الدعوة؛ أي أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة، أي من نظام دورة الفلك، وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات، فالسنة اثنا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم أربع وعشرون ساعة؛ منها اثنتا عشرة بالنهار واثنتا عشرة بالليل، فكذلك قُسِّمت مراتب الدعوة. فالسنة التي تجمع الشهور والأيام مثل على النبي في عصره أو الإمام الذي يجمع جميع مراتب الدعوة، والاثنا عشر شهرًا مثل على رؤساء الدعوة في الجزائر[1]، ويسمون حجيج

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثنى عشر جزءًا، سموا كل جزء بجزيرة أي إقليم، وحاولت أن أعرف هذه الجزائر دون فائدة. ويذهب الأستاذ إيفانوف (هامش ١، ص٢٠ من كتاب Rise of fatimite) إلى أن

الجزائر، ولكل من هؤلاء الحجيج ثلاثون داعيًا أو نقيبًا، ولكل داع من هؤلاء الدعاة أربعة وعشرون داعيًا مأذونًا أو مكاسرًا، ولكل مرتبة من هذه المراتب عمل خاص به، فالإمام يختار من شيعته أقواهم لسانًا، وأصدقهم جنانًا، وألحنهم بالحجة، وأغزرهم علمًا؛ فيجعله في مرتبة داعي الدعاة أو باب الأبواب، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة؛ لأنها تلي مرتبة الإمام مباشرة من الناحية المذهبية، فهو المالك لجماعة الحجيج والدعاة، وإليه الإشراف على الدعوة في جميع الأقطار. وقد وصف أحد علماء المذهب هذه المرتبة بقوله: «وحد الباب هو من الحدود الصفوة واللباب، فهو أفضل الحدود، وهو حد العصمة، ولا ينتهي إلى ذلك إلى الآحاد والأفراد»(١). وقال آخر: «هو باب صاحب الزمان الذي يؤتى منه إليه، وحجته على الخلق، وحامل علمه، وصاحب دعوته»(٢). فنسبة الحجة إلى الإمام كنسبة الوصي إلى الناطق، والحجة هو صاحب التأويل في عصر الإمام، فهو الذي يعقد مجالس الحكمة، ويتلو على المستجيبين علوم أهل البيت؛ أي علم الباطن.

ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التي قسموا إليها حجة، هو كبير دعاة الإقليم والمشرف على الدعوة فيه، وهو الذي ينوب عن باب الأبواب في عقد مجالس الحكمة وتلاوة المجالس، وهذا الحجة على صلة وثيقة بباب الأبواب الذي اختاره الإمام، ولكي ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا في نفوس أتباعه أنقل ما كتبه أحدهم، وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته، وهو

هذه الجزائر هي: العرب، الترك، البربر، الزنج، الحبشة، خزر، الصين، فارس، الروم، الهند، السند، الصقالبة. ولكني وجدت أن حميد الدين الكرماني كان يُلقب بحجة العراقين، ولم أجد العراقين بين الجزائر التي ذكرها الأستاذ إيفانون. وكلمة جزيرة مأخوذة من الأصل «جزر» بمعنى قسم.

(١) رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة في نصف رجب (مخطوط رقم ٣٥٧٤٠، بمدرسة اللغات الشرقية بلندن).

(٢) هامش جامع الحقائق: ج٢، ص١٥٣ (مخطوط بمكتبتي الخاصة).

يحادث الوزير بشيراز: «معلوم ما بيني وبين الديلم من الأحوال الممهدة، والأسباب المؤكدة، وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلًا فإنه يباركني شاكيًا إليَّ، ومواردًا جملة أمره وتفصيله علي»(١). فمكانة حجة الجزيرة في جزيرته لا تقل عن مكانة الوالي أو القاضي؛ ولكل حجة جزيرة ثلاثون داعيًا نقيبًا يقومون بهداية الناس وبث الدعوى في نفوس المستجيبين، وهم الذي يفاتحون الذين دخلوا في الدعوة بالعلم بعد أن يأخذوا عليهم العهد والميثاق، وهم الذين يجمعون النجوى منهم، ويكون أمرهم لحجة الجزيرة. ولكل نقيب من هؤلاء النقباء أربعة وعشرون داعيًا مأذونًا مكاسرًا، وهو الداعي الذي يشكِّك المسلمين في عقائدهم المذهبية، ويُوقع الوهم في نفوس المتدينين أنهم على ضلال، ولا يزال بهم حتى يطلبوا إليه أن يدلهم على الصواب المبين، ولكنه يحاورهم ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال، أحالهم على الداعي أو النقيب الذي يبدأ في مفاتحتهم بأسرار الدين شيئًا فشيئًا، بعد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب في زمرة الدعوة، ومن ذلك يتبين أن الداعي المأذون هو الذي يكاسر الناس بأن يمطرهم بأسئلة لا يستطيعون الإجابة عنها؛ ولذلك يُشترط في من يتولى هذه المرتبة أن يكون على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها، وموضع الضعف في كل مذهب من المذاهب، وأن يكون متمكنًا من أصول مذهبه، وأن يكون لَسِنًا مجادلًا، وقد حدد الفاطميون الصفات التي يجب أن تتوافر في الداعي، نلخِّصها في سعة العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة، وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه، وهذه المرتبة هي أقل مراتب الدعوة، فما بالك بالشروط التي يجب أن تتوافر في مراتب الحدود التي هي أعلى شأنًا من مرتبة المكاسر.

(١) السيرة المؤيدية: من مطبوعات دار الكاتب المصري.

ويحدثنا الداعي أحمد حميد الدين الكرماني في كتابه راحة العقل عن الحدود الجسمانية الذين إليهم أمر الدعوة، ورتبهم بالترتيب الآتي:

(١) الناطق: وله رتبة التنزيل.

(٢) الأساس: وله رتبة التأويل.

(٣) الإمام: وله رتبة الأمر.

(٤) الباب: وله رتبة فصل الخطاب.

(٥) الحجة: وله رتبة الحكم فيما كان حقًّا أو باطلًا.

(٦) داعي البلاغ: وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد.

(٧) الداعي المطلق: وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

(٨) الداعي المحدود: وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة.

(٩) المأذون المطلق: وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

(١٠) المأذون المحدود، الذي هو المكاسر: وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة[١].

وهكذا ذهب الكرماني في ترتيب الحدود الجسمانية، ولكننا نتساءل عن الطريقة التي رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والأساس، ولا سيما وقد ذكر الفاطميون في كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته، ثم نتساءل مرة أخرى عن مرتبة الإمام في عهد الناطق؛ إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب، وأن الإمامة كانت له، فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق؟

(١) المشرع السادس من السور الرابع من كتاب راحة العقل (مطبوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند).

obeikandl.com

وضع هذا النظام للدعاة بحيث لا يخلو بلد من دعاتهم، وفي ذلك قال المعز لدين الله الفاطمي: «إن أكثر الناس يجهلون أمرنا، ولا يظنون أنَّا لا نعني إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا، ولو كان ذلك لكنا قد ضيعنا من بَعُدَ عنا، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد، ولكنا للرأفة بهم، ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم، قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا[١].

وعلى الرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي، وكان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقية على أنفسهم خوفًا من بطش العباسيين، فقد استطاع الباحثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور الستر الأول، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين بن حوشب بن زادان الملقب بمنصور اليمن، وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور الستر -الحسين بن أحمد بن عبد الله- للدعوة باليمن، وهو الذي أوفد تلميذه أبا عبد الله الشيعي داعية إلى المغرب[٢]، ومنهم الداعي فيروز، وكان داعي الدعاة في زمن المهدي قبل ظهوره بالمغرب، وكان من أجل الناس عند الإمام، ومن أعظمهم منزلةً، والدعاة كلهم أولاده، ومن تحت يده، وهو باب الأبواب إلى الأئمة[٣]، ومنهم أبو جعفر الجزري، وكان له أيضًا محل جليل عند المهدي؛ لأنه كان من كبار الدعاة، ووكَّله المهدي بالحريم عندما فر من سلمية[٤]، وتوفي هذا الداعي برقادة بعد أن فتحها المهدي، وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي إلى المغرب رجلًا يُعرف

(١) المجالس والمسايرات: للقاضي النعمان: ورقة ١٠٥ B مخطوط.

(٢) افتتاح الدعوة: للقاضي النعمان: نسخة خطية.

(٣) سيرة جعفر الحاجب: نُشرت بمجلة كلية الآداب، الجزء الثاني من المجلد الرابع، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦.

(٤) المصدر السابق.

بأبي علي الداعي، وكان رأس الدعاة بمصر، وأبو علي هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه: «الفترات والقرانات» مُلقبًا بالشيخ الأجل المفيد، وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته[١]، وأنجب ابنه محمدًا أبا الحسين بن أبي علي الداعي الذي بلغ مع الأئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله، المحل الجليل العظيم، وكان داعي الدعاة[٢]، وجاء في كتاب استتار الإمام أن عددًا من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور، وهم: أبو غفير، وأبو سلامة، وأبو الحسن بن الترمذي، وجياد الخثعمي، وأحمد بن الموصلي، وأبو محمد الكوفي[٣]، وهؤلاء جميعًا لا نعرف عنهم شيئًا. أما في دور الظهور -الذي يبدأ بظهور المهدي بالمغرب إلى انقراض الدولة الفاطمية- فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة، كما وصلت إلينا بعض كتبهم[٤].

قلنا: إن من أهم أعمال داعي الدعاة، عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين، فاتخذت مراكز لإلقاء هذه المجالس التأويلية، ولعل أهم هذه المراكز في مصر هي: (١) المساجد. (٢) القصر. (٣) دار العلم.

المساجد:

كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا الحديثة، فقد كان الناس يتحلقون في المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقيه هؤلاء عليهم من علوم وآداب، على النحو الذي نراه إلى الآن في بعض المساجد في مصر؛ فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانًا لإقامة الشعائر الدينية فحسب، بل

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص١١٤.

(٣) استتار الإمام: نشر بمجلة كلية الآداب، بالجزء الثاني من المجلد الرابع، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦، ص٩٣.

(٤) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية.

كانت دور علم أيضًا، وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا في اتخاذ المساجد مجالًا لنشر دعوتهم الدينية وبث عقائدهم المذهبية، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء المساجد، وجعلها تتناسب مع عظم ملكهم أولًا، وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيًا؛ لذلك نرى القائد جوهر الصقلي عندما وضع أساس مدينة القاهرة لم ينسَ أن يبني مسجده العتيد -الجامع الأزهر- أنشأه بأمر مولاه الإمام المعز لدين الله، وشرع في بنائه في يوم السبت، لِستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة[1]، وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ثم جدد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله الذي وقف عليه رباعًا بمصر، ثم جدده المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي أنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربي، وهكذا كان هذا المسجد في العصر الفاطمي محل رعاية الأئمة وعنايتهم، فلم يقصروا في تجديده والزيادة فيه، حتى قيل: إنه كان يصدر في محرابه منطقة فضة قلعها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩هـ، فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى قناديل الفضة وتنورين من الفضة، ووقفوا لمؤذنيه وخدمه ووسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور في كتب التاريخ.

والذي يهمنا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتحليق في هذا المسجد العتيد، واتخذوا منه جامعة علمية، فعُدَّ بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ؛ ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانًا لها بين أماكن أخرى، ففيه عُقِد أول اجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير، وفي ذلك يروي المقريزي عن المسبحي أنه في يوم الغدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ، اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء الفقهاء والمنشدون، فكان جمعًا عظيمًا أقاموا إلى الظهر، ثم خرجوا إلى القصر، فخرجت إليهم الجائزة، وكان

(١) خطط المقريزي: ج٤، ص٤٩ (طبع مطبعة النيل).

هذا أول ما عُمِل بمصر[١]، وبالجامع الأزهر كان داعي الدعاة يعقد مجلسًا للنساء يلقي عليهنَّ شيئًا من علوم أهل البيت[٢]، وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان، وابتدأ في قراءة كتاب جده: «اختلاف أصول المذاهب»[٣]. ويذهب المقريزي إلى أن أول ما عُرف من إقامة درس من قِبَل السلطان بمعلوم جارٍ لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار، وعمل ذلك بالجامع الأزهر[٤]، ويقول القلقشندي: إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة، وأطلق لكلٍّ منهم كفايته من الرزق، وبنى لهم دارًا بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة، وتكلموا في الفقه، وأبو يعقوب قاضي الخندق رئيس الحلقة والملقي عليهم إلى وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين نفرًا[٥]، وجاء في خاتمة النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات: «تمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام، وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرته من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين، وهي الرسالة التي كتبها علي بن حسين بن أحمد الأصبهاني المؤذن بالجامع الأزهر، عن الداعي أحمد بن عبد الله بن محمد الكرماني مؤلفها قدَّس الله روحه. كُتبت من نسخته وقُرئت عليه وعلى جمهور المؤمنين»[٦]. ويحدثنا الكرماني في مقدمة هذه الرسالة أنه وفد إلى مصر -ويُخيل إليَّ أنه جاء مصر إبان ثورة الدرزي- فاضطر إلى تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس، فنقلها عنه مؤذن الجامع الأزهر. فهذا كله يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفاطميين

(١) المقريزي: الخطط: ج٢، ص٢٢٣.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٢٦.
(٣) رفع الإصر: ص٧٣.
(٤) خطط المقريزي: ج٤، ص١٩٢، ج٢ ص٢٢٢.
(٥) صبح الأعشى: ج٣، ص٣٦٦.
(٦) رسالة مباسم البشارات، (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة).

اتخذوا من المسجد الجامع الأزهر مركزًا من مراكز دعوتهم، ومعهدًا تُلقى فيه علوم أهل البيت.

وهنا نقف لنتساءل: هل كان هذا المسجد معهدًا لتعليم الدعوة الفاطمية فحسب، فلا نجد أثرًا لحلقات الشافعية والمالكية والحنفية؟ يُخيل إليَّ أن الفاطميين كانوا يتسامحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يُلقِي دروسه وتعاليمه في الجامع الأزهر؛ فقد قيل: إنه في سنة ٣٨٣هـ رتب رجل جعفري للجلوس في الجامع للفتوى على مذهب أهل البيت، فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع، فبلغ القاضي ذلك فقبض على بعضهم(١). فمن هذا النص نستطيع أن نتبين أنه كان بالجامع فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم وعقيدتهم، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الفاطمي شغبوا عليه، فاضطر القاضي إلى أن يقبض على بعضهم لا لشيء سوى أنهم لم يتسامحوا مع هذا الفقيه مثل ما تسامحت الدولة معهم. ويُروى أيضًا أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب فقيهين، وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع، ثم بدا له فقتلهما بعد ذلك(٢). أضف إلى ذلك أن مصر شاهدت في العصر الفاطمي عددًا من فقهاء الشافعية والمالكية، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد بن بندار أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة، وأقام بها أربعين سنة(٣) يلقي تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين، وسنتحدث عن ذلك كله في الفصل الخاص بفقهاء أهل السنة؛ وإذن نستطيع أن نقول: إنَّ الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب الأخرى بإلقاء تعاليمهم بجانب ما كان يُلقى من تعاليم الفاطمية، وقد تكون هذه سياسة وُضِعت لأن تقام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين، حتى يستطيع جمهرة المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ

(١) الكندي: ص٥٩٤.

(٢) النجوم الزاهرة: ج٤، ص١٧٨.

(٣) المصدر السابق: ج٥، ص١٥٦.

حتى يستطيع جمهرة المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية، وأن يقتنعوا بحجج الدعاة وأدلتهم، وتبهرهم فصاحتهم فيدخلوا في الدعوة.

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح، وجامع راشدة، وجامع المقس، وجامع القرافة، والجامع الأقمر، وكثيرًا من المساجد التي لا يزال بعضها ماثلًا أمام أعيننا الآن، وقد نقل الفاطميون إليها المصاحف، وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمي، فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقين الدعوة الفاطمية.

القصر:

يحدثنا القاضي النعمان بن محمد بأنه: «لما فتح المعز لدين الله (ص) للمؤمنين باب رحمته، وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته، أخرج إليَّ كتابًا من علم الباطن، وأمرني أن أقرأه عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقائه، فكثر ازدحام الناس وغصَّ بهم المكان، وخرج احتفالهم عن حد السماع، وملئوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه»(١).

وفي موضع آخر قال القاضي النعمان: وسمعته صلى الله عليه -أي سمع المعز- يقول لبعض الأولياء: ما تنظرون اليوم في شيء تنتفعون به، ما تقرءون شيئًا، ما تسمعون شيئًا؟ فسكتوا، وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضًا في الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذي بسطه المعز لدين الله (صلع)، وجعله في مجلس من مجالس قصره، وأباح لهم حتى أحبوا استماعه وقراءته وانتساخه والتعلم منه والتفقه فيه، وقال بعض من حرض على ذلك: ويحكم! أما تخافون إن قصرتم في هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم

(١) المجالس والمسايرات: ورقة ٦٨ ب.

أن يختبركم فيه، وقد أباحه لكم دهرًا طويلًا فيختبركم فيه أو في بعض أبوابه، فلا يجدكم حفظتم شيئًا منه ولا انتفعتم به، فيقال لكم: إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذي تعبدكم الله بالقيام به، فكيف ينبغي لنا أن نعطيكم من باطنه؟[١]

ولعل هذه القاعة التي أشار إليها النعمان، والتي ألقي فيها هذا العلم الباطن، هي المكان نفسه الذي خصصه الفاطميون للدعوة وعُرف باسم المحول ... فكان المحول في العصر الفاطمي أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث، وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس[٢]، وهكذا جعل الفاطميون جزءًا من قصرهم للدعوة لمذهبهم، ومكانًا يلقي فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت، وهي المجالس التي عُرفت بمجالس الحكمة التأويلية. ولم يكتف الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول في قصرهم، نراهم يهتمون اهمامًا خاصًّا بمكتبة القصر، حتى عُدَّتْ هذا المكتبة من مفاخر الفاطميين، فقد تميزتْ عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ويقول المقريزي نقلًا عن ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر: «ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري، إلى غير ذلك. ويقال: إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب»[٣]. ويقول المقريزي: ومما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة، جعل

(١) المجالس والمسايرات: ج٢، ص١٢٣-١٣٤.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٢٦.
(٣) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٥٥.

فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد[١]. ويروى عن المسبحي أن عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، وبعضها داخل القصر لا يتواصل إليها أحد، وبعضها في خزائن القصر البرانية، وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية؛ فمن فقه على سائر المذاهب، إلى نحو ولغة وكتب حديث وتاريخ ونجامة، وروحانيات وكيميا، غير المصاحف الكثيرة. ويقال: إن العزيز بالله ذُكِر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد، فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفًا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز خازنه فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير... إلخ[٢].

وهكذا كانت خزانة كتب القصر، ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن، وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم، وذلك تشجيعًا منهم للعلم والعلماء، ولا غرو في ذلك، فإن مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل، وإلى الاستزادة من جميع العلوم والآداب، حتى يتسنى لدعاتهم أن يكاسروا خصومهم بأدلة علمية، وأن يتخذوا من سعة أفقهم ومداركهم وثقافتهم مجالًا يجلون فيه حتى يبزوا غيرهم، فلا نعجب إنْ رأينا داعيًا من دعاتهم مثل هبة الله بن موسى الشيرازي المعروف بالمؤيد في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره، واستطاع بما حصَّله من علم أن يردَّ على جميع المذاهب والفرق الإسلامية، وأن يدحض رأي الزنادقة المارقين أمثال ابن الراوندي والثغوري، وأن يناظر بعض الشاكين أمثال أبي العلاء المعري، وأن

(١) خطط المقريزي.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٥٣.

يجادل خصومه هؤلاء بأدلة علمية منطقية وحجج قوية، فلولا ما أوتيه من علم، لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعًا، فيهاجمهم ويدحض حجتهم نثرًا وشعرًا، ويترك لنا هذه الذخيرة في مجالسه وديوانه، ونستطيع أن نقول كذلك عن الداعي أحمد حميد الدين الكرماني، وعن الداعي أبي حاتم الرازي، وعن السجستاني وغيرهم من فحول دعاة المذهب الذين تمَّ على أيديهم فلسفة المذهب، وتبلورت عقائده.

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم، أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم، وكان ابتداء هذه المحنة التي نكبت بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلَّت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي، وقد شاهد المسبحي المؤرخ المصري شيئًا من هذه المحنة، وصفها بقوله: «وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملًا موقرة كتبًا، محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي، فسألت عنها، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين، وأن حصة الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار، وذكر لي مَن له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار، ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة، مع غيرها مما نُهب من دور مَن سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة، وسوى ما صار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالإسكندرية، ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولًا مع ما صار إليه بالابتياع والغضب في بحر النيل والإسكندرية، في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها، من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحةً وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها

عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم، وأحرق ورقها، تأولًا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، سوى ما غرق وتلف، وحُمِل إلى سائر الأقطار، وبقي منها ما لم يُحرق، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالًا باقية في نواحي آثار تُعرف بتلال الكتب»[١].

هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصري الكبير وذكره في كتبه، وعنه أخذ مَن جاء بعده عن هذه الذخيرة العلمية، ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والخدم، بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية، وأصبح الوزراء والأمراء أصحاب الحول والطول في البلاد، ومع ذلك كله بقي في مكتبات القصر عدة آلاف من الكتب.

ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثروة الأفضل بن بدر الجمالي خمسمائة ألف مجلد من الكتب[٢]، لا أشك أن أكثرها كان في خزائن القصر، وأبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين، وقد ذكرنا ما أخذه القاضي الفاضل من خزائن القصر لمدرسته الفاضلية. ويذكر المقريزي أن ابن صورة دلال الكتب باع منها جملة في مدة أعوام[٣]، وكذا ضاعت كنوز الفاطميين العلمية بيد التعصب الممقوت.

كان في هذه الخزائن كتب الدعوة، وما ألفه الأئمة، وكانت هذه الكتب مما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصيبه الفساد، ويحدثنا منصور الجوذري الكاتب أن المنصور بالله أرسل إلى جوذر الصقلبي رسالة نسختها: «بعثتُ إليك كتبي وكتب الأئمة آبائي الطاهرين. وقد ميزتها فأقررها عندك

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٥٤.
(٢) أخبار مصر لابن ميسر: ص٥٧.
(٣) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٥٥.

مصونة من كل شر، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه، وما من الذخائر شيء هو أنفس عندي منها، فأمر محمدًا كاتبك ينسخ لك منها ثلاثة كتب، ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به»[١]. فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتب الأئمة، وهي كتب الدعوة ومحافظتهم عليها؛ فلا شك أن مثل هذه الكتب العزيزة لديهم كانت تُحفظ داخل القصر فلا يقربها إلا الأئمة والدعاة فقط، أما المكتبات التي عبر عنها المسبحي «بالبرانية»، فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة التأويلية.

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دورًا هامًّا في الدعوة ونشرها، فحرص الفاطميين على اقتناء الكتب على اختلاف فنون العلم والآداب، وشغفهم بالمحافظة عليها سهَّل للدعاة الاطلاع وإدمان النظر فيها، والمجادلة فيها بينهم، والمناظرة في هذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لغايتهم، وسلاحًا من أسلحة دعوتهم. حقًّا لم يذكر لنا القدماء أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التي كانت بالقصر في خدمة الدعوة، فلم يعقد فيها الدعاة مجالس الحكمة، ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد في القصر عبثًا، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليباهوا بها غيرهم ومنافسيهم فحسب؛ بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليه طبيعة عملهم، ولا سيما هذه الكتب التي كانت في داخل القصر والتي لا يقربها إلا الخاصة، وهي الكتب التي قلنا إنها كتب الأئمة؛ أي كتب الدعوة، فكيف يتأتى للداعي أن يقوم بما فُرض عليه من الدعوة إلا بمعرفة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة، ولا سيما أن الداعي كان عرضة دائمًا للمجادلات والمناظرات مع علماء المذاهب الأخرى المخالفين لمذهبه، وقد

(١) سيرة الأستاذ جوذر، (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة).

ذكرنا شيئًا من صفات الداعي العلمية، وما يجب أن يكون عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمذهبه؛ وإذن فلنا أن نقول: إن هذه المكتبات التي كانت في القصر استخدمت في الدعوة من طريق غير مباشر، وهكذا استُخدم القصر في العصر الفاطمي في نشر الدعوة الفاطمية بمحوله ومكتباته، وفي المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات -مجالس الحكمة التأويلية- وكان الجمهور يقسم إلى أقسام؛ فكان للأولياء مجلس، وللخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر مجلس، ولعوام الناس مجلس، وللطارئين مجلس، وللنساء مجلس[١]، وهكذا وسنتحدث عن ذلك في فصل مجالس الحكمة التأويلية.

دار العلم:

ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وسماها بدار العلم، وجعلها جزءًا من قصره، ولعلها هي الخزائن التي أشار إليها المسبحي باسم الخزائن البرانية، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم يُرَ مثله مجتمعًا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طباقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها؛ فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافاتهم وفنونهم العلمية؛ فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم مَن يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق[٢]، فدار العلم إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٢٦.

(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٣٣٤.

للتعليم، وكثيرًا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها. من ذلك ما يرويه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي قدم مصر، وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحاق علي بن سليمان المعري النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة، وتجري بينهم مباحثات ومذكرات(١)، ويروي المقريزي عن المسبحي أنه في سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد، وجماعة من الأطباء إلى حضرته، للمناظرة بين يديه، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم(٢).

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل مكفوف يقال له: أبو الفضل جعفر، قَدِم فأعجب به الحاكم وخلع عليه، ولقبه بعالم العلماء، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة(٣). ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يُقِيما بدار العلم، ويُلقيا دروسًا في المذهب المالكي(٤). فهذا كله إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل؛ فالفاطميون بإشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تمتاز بها المدنية الحديثة في أيامنا هذه!

(١) بغية الوعاة للسيوطي: ص٢١٣.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص٣٣٥.
(٣) رفع الإصر (ص١٩ ب)، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٤) النجوم الزاهرة: ج٤، ص٢٢٢.

جعل الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي القضاة[١]، وظلت تؤدي أغراضها العلمية، ويُقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب، إلى أن كانت أيام وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، وعلم الوزير أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب، وأن بعضهم ادَّعى الألوهية، فاضطر الوزير إلى أن يغلق هذه الدار سنة ٥١٦هـ، بعد أن عمرت أزيد من قرن، وكأن إغلاق هذه الدار العلمية وَقَعَ وَقْع الصاعقة على الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، وعلى بعض العلماء الذين كانوا في خدمته، ولكن الخليفة كان مسلوب الإرادة مع وزيره، فصبر على مضض، حتى قتل الأفضل وتولى الوزارة المأمون البطائحي، ففاتحه الآمر في إعادة دار العلم على ما كانت عليه، وما زال الخليفة بوزيره حتى قبل أن يُعيد افتتاحها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر، وأن يتولاها رجل دين، وأن ينظر فيها الداعي ابن عبد الحقيق، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن، فوافق الخليفة الآمر على ذلك كله، واستخدم في هذه الدار الجديدة أبا محمد حسن بن آدم[٢]، ولكن هذه الدار الجديدة لم تعمر طويلًا؛ إذ قضي عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية.

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية، فكان الداعي يجلس فيها، ويجتمع إليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم[٣]، كما كانت هذه الدار المكان الذي يجتمع فيه داعي الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة[٤]. ومَن يدري لعل في دار العلم كانت تحضر مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها داعي الدعاة نائبًا عن إمامه.

---

(١) الولاة والقضاة للكندي: ص٦٠٠.
(٢) المقريزي: ج٢، ص٣٣٧.
(٣) صبح الأعشى: ج٣، ص٣٦٦.
(٤) خطط المقريزي: ج٢، ص٢٦٦.

ومهما يكن من شيء فالقصر والمساجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة في العصر الفاطمي، ولما كانت هذه المراكز في القاهرة كان في كل بلد من البلدان مركز للدعوة هو المسجد أو منزل الداعي في هذا البلد يحدثنا المؤيد في الدين وكان داعيًا في أول الأمر بشيراز: «فلما كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة كنت بيوم قبله مستعدًّا له في تحصيل فرش وآله وسجادات يصلي عليها المصلون، ولا يستغني عنها المتعبدون. فرُفع الخبر بأنني أستجمع الجموع للصلاة والخطبة في غد، وأضرب في ساحة داري المضارب والفازات، ولما كان في غد -وهو العيد- اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والإنذار ... إلخ»[1]. فالداعي هنا كان يتخذ منزله مركزًا للدعوة، ولكنه كان في بلد يخضع لحكم العباسيين، أما في مصر فقد كانت الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بمالها وسلاحها، فكان الدعاة يتخذون المنازل والمساجد للدعوة دون خشية، وفي المساجد كانوا يلقون مجالسهم التأويلية.

(١) السيرة المؤيدية.

الفصل الثالث
مجالس الحكمة التأويلية

من أَجَلِّ أعمال داعي الدعاة ونوابه في الجزائر: عقد مجالس الحكمة التأويلية، أو بعبارة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم، يبثهم فيها الداعي عقائد مذهبهم والتأويل الباطن للدين، وهي العلوم التي عُرفت بعلوم أهل البيت، والتي هي السر الذي يجب أن يظل مدفونًا في صدور الأولياء لا يبوحون به لأحد، فكل المجالس التي عقدها الدعاة هي مجالس تعليمية، ولكن لهذه المجالس درجات، ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل؛ فللعامة مجلس، وللنساء مجلس، وللخاصة مجلس، وهكذا. ولم تُقسم هذه المجالس على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين؛ إنما قسمت على حسب مرتبة الحاضرين في مدارج الدعوة، فلا يلقي داعي الدعاة على دعاته ما يلقيه على المبتدئين في دخول الدعوة، ولا يلقي على العامة من أهل البلد ما يلقيه على الغرباء، فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص، وعلوم خاصة، بحيث ينتهي إلى أسرار الدعوة التي يجب ألا يقربها إلا كل ذي قدم راسخة في الدعوة، ومَن بلغ فيها مرتبة رفيعة كأن يكون داعيًا مثلًا.

وداعي الدعاة -ويُعرف بباب الأبواب، وباب حطة، وبالحجة- هو الذي يعد هذه المحاضرات، ويرفعها إلى الإمام، فيوقعها هذا بعلامته، ويعيدها إلى كبير دعاته، فيلقيها على المستجيبين في المحول أو غيره، فإذا انتهى من قراءتها مسح على رءوس الناس بعلامة الإمام تبركًا بها، وتُكتب هذه المجالس عادة على أنها صادرة من الإمام فتظهر للجمهور وكأن الإمام هو الذي كتبها، وأن داعي الدعاة هو قارئ لما كتب الإمام؛ ولذلك يختفي اسم الداعي ولا يظهر في كتب المجالس، مع أن المعروف أن حجة الإمام هو صاحب التأويل في عصره.

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله، والصلاة على نبيه، والأئمة من نَسْل عليٍّ، ويردفها الداعي بشيء من الوعظ والإرشاد، ثم يبدأ في تأويل آية من آيات القرآن، أو حديث نبوي، أو أثر عن الأئمة، أو يئول شيئًا من فرائض الدين العلمية، ويختم مجلسه بالدعاء والصلاة والحمد. وتُلقى هذه المجالس مرتين في الأسبوع: يوم الإثنين ويوم الخميس، ويُخيل إليَّ أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة، وفيها يقول المؤيد:

يا صباح الخميس أهلًا وسهلًا ... زادكَ الواحدُ المهيمن فَضْلا
أنت عيدٌ للمؤمنين عتيدٌ ... جمع الدين منهم فيك شملا
نحن نجني ثمارَ جنة عدن ... كلما أَقْبَلَ الخميسُ وولَّى
من رياض أنهارها جاريات ... وبها الحور في المقاصر تجلى
تتروى الأرواحُ منها بماءٍ ... هو أَشْفَى من الزلال وأحلى
رتبة خصَّنا بها صاحبُ العصـ ... ـر أمين الإله عزَّ وجَلا[1]

وبين يدي الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها بعض الدعاة، مثل كتاب «تأويل دعائم الإسلام» للقاضي النعمان بن محمد، وكتاب «المجالس المؤيدية» ويحتوي على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل، وكتاب المجالس المستنصرية للداعي الموسوم بعلم الإسلام ثقة الإمام[2]، وهذه المجالس تختلف باختلاف الداعي، فمجالس القاضي النعمان في تأويل فقه الفاطميين، والمؤيد يميل في تأويله إلى فلسفة المذهب، أما ما جاء في المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائي، ويُخيل إليَّ أن المجالس المستنصرية كانت تُلقَى على المبتدئين في الدعوة، وقد رأيت أن أقدِّم صورة من هذه المجالس المختلفة:

(١) ديوان المؤيد داعي الدعاة.
(٢) طُبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار الفكر العربي بالقاهرة.

المجلس العاشر من الجزء الرابع من «تأويل دعائم الإسلام» للقاضي النعمان:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جلَّ عن تقدير المتوهمين، ولطف عن لطيف بحث المتوسمين، وصلى الله على محمد النبي وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين، ثم إن الذي يتلو ما تقدم ذكره ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: أول الصفوف أفضلها، وهو صف الملائكة، وأفضل المقدم ميامن الإمام. تأويله ما تقدم القولُ به من أن أمثال الصفوف في الصلاة أمثال درجات المستجيبين إلى دعوة الحق على مقادير فضلهم وسبقهم، وأن أمثال الملائكة من الناس أمثال المملكين أمور العباد، وهم أولياء الله من رسله وأئمة دينه ومن ملكوه شيئًا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوهم له، والملك والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتقة أسماؤها من الرسالة، والألوك والمألكة في لغة العرب الرسالة، وقد قال الله جلَّ من قائل: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ فالصف الأول من صفوف ظاهر الصلاة لا ينبغي أن يقف فيه إلا أفضل أهل المسجد من علمائهم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لِيَلِني منكم أولو النهى والعلم»**. وينبغي أن يكون على يمين الإمام في الصف من خلفه أفضلهم، ومن يصلح أن يكون إمامًا إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة؛ لأن انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين، فيكون مَن يقدمه هناك، فيأخذ بيديه ويقدمه مكانه.

وعلى هذا تجري مراتب أهل الدعوة في حدودها: أن يكون الذين يلون القائم بها في الدرجة العالية من درجات المؤمنين الذين هم أهلها، وأن يكون أقربهم منه عن يمينه، وهي أفضل درجاتهم، من يصلح لمقامه من بعده، ويتلو ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال: سدوا فرج الصفوف، ومن استطاع أن

يتم الصف الأول أو الذي يليه فليفعل، فإن ذلك أحب إلى نبيكم، وأتموا الصفوف؛ فإن الله وملائكته يصلون على الذين يتمون الصفوف.

وعن جعفر بن محمد -صلوات الله عليه- أنه قال: «أتموا الصفوف، ولايضرك أن تتأخر إذا وجدت تضييقًا في الصف الأول فتتم الصف الذي خلفك، وإن رأيت خللًا أمامك فلا يضرك أن تمشي منحرفًا حتى تسده». يعني وهو في الصلاة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صلوا صفوفكم، وحاذوا بين مناكبكم، ولا تخالفوا بينها فتختلفوا ويتخللكم الشيطان كما يتخلل أولاد الحذف». فتعديل الصفوف وسدُّ ما فيها من الفرج وتمامها واعتدال وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر، ومثله في الباطن اعتدال أهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حُدَّت لهم، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره، ومَن رأى منهم خللًا في حد من الحدود التي فوقه أو دونه، فينبغي له أن يسعى ويجتهد فيما يبلغه إلى تلك الدرجة، ويوجب له سد ذلك الخلل، وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحال فيها، وأوجبت لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين في ذلك على ما أُمِروا به من التساوي فيه، لا يتقدم أحد منهم أحدًا في ذلك، كما وجب في ظاهر الصلاة أن يحاذي أهل كل صف منها بين مناكبهم، ولا يتجاوز أحد منهم أحدًا، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا وتخللهم الشيطان. وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تعدى أحدهم حده، وخرج عنه إلى حد غيره، أوجب ذلك اختلافهم، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله الذين أمثالهم أمثال الشياطين. وقوله: «كما يتخلل أولاد الحذف». فالحذف ضرب من الغنم الصغار السود، واحدتها حذفة، تتخلل الغنم وتمشي بينها، فشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم تخللها ومشيها بتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين لما يريده من تقاطعهم وتدابرهم وأمروا بلزومها.

ويتلو ذلك ما جاء عن علي (ص) أنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا علي لا تقومن في العيكل». قلت: وما العيكل يا رسول الله؟ قال: «تصلي خلف الصفوف وحدك». فهذا مما يُكره في ظاهر الصلاة أن يقف المصلي خلف الصفوف وحده، وهو يجد فيها مكانًا يقوم فيه، فإن لم يجد ذلك قام إلى أن يأتي من يقوم إلى جانبه، أو يصلي كذلك وحده إن لم يأت أحدٌ، ولم يجد في الصفوف موضعًا يقوم فيه، وتأويل ذلك في الباطن؛ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا عليه السلام عن أن يفعله في الظاهر؛ لأنه ليس هو حده في الباطن، وحده في الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة، فكره له أن يقوم في الظاهر في مكان لا يشبه مكانه في الباطن، وكذلك لا ينبغي له أن يخلف بنفسه، وأن يتواضع عن الدرجة التي جعلها له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويتلو ذلك قول محمد بن علي عليه السلام: «ليكن الذين يلون الإمام أولي الأحلام والنهى، فإن تعايا لقنوه». وقد جاء في مثل ذلك ما تقدم القول به من أن ذلك كذلك يجب في ظاهر الصلاة أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس، علماءهم وأهل الفضل منهم، فإن تعايا وتوقف في القراءة لقَّنوه، وإنْ سها في الصلاة سبحوا له ليتذكر ما سها فيه، فيرجع إلى الواجب منه، وأن ذلك في الباطن كذلك لا يلي صاحب دعوة الحق في الرتبة والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة، فإن سها عن شيء عندهم من علم ذكَّروه إياه على ما تقدم القول به.

ويتلو ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: «إذا صلى النساء مع الرجال قمن في آخر الصفوف، لا يتقدمن رجلًا ولا يحاذينه، وإلا أن يكون بينهن وبين الرجال سترة، فهذا هو الواجب في ظاهر الصلاة، وتأويله ما قد تقدم به من أن الرجال أمثال المفيدين، والنساء أمثال المستفيدين، وأن درجة

المفيدين فوق درجة المستفيدين، ولا ينبغي للمستفيد أن يتجاوز حدًّا إلى حد المفيد ولا أن يدانيه، بل ينبغي له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له». وأما قوله: «إلا أن تكون بينهن وبين الرجال سترة». تأويله أن يكون المفيد مستترًا لحال التقية، فيعامل المستفيد منه في السر ويفيده، ويتقدم إليه ألا يدل عليه شيء من إجلاله ولا التواضع له، فيطرح ذلك المستفيد في ظاهر أمره تقية على مفيده وعلى نفسه. فافهموا بيان التأويل يا ذوي النهى والعقول، جعلكم الله ممن يفهم ويعلم ويعمل بما علم، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليمًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

صورة من المجالس المؤيدية:

المجلس التاسع من المائة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي علا عن كل معلوم، وسما عن كل موسوم، وكبر عن كل موهوم ومفهوم، وصلى الله على ربيب رحمته المعمور، وبحر حكمته المسجور، محمد المبشر به في التوراة والإنجيل والزبور، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج، ومستودع سر ليلة المعراج، علي بن أبي طالب البرزخ بين البحرين، العذب الفرات والملح الأجاج، وعلى الأئمة من ذريته هداة مَن ذرأ الله من خلقه، والمستحفظين لدينه وحقه، والمتمين كلمة عدله وصدقه. معشر المؤمنين، آمنكم الله من الفزع الأكبر، وحشركم مع مَن تحبون في يوم المحشر، القليل الطيب خير من الكثير الخبيث، فكونوا طيابًا، وكونوا في جانب الخير ولا تيمموا لشر جنابًا، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما شرع، والاقتداء به في وصل ما وصل، وقطع ما قطع، فصلوا ما أمر الله به أن يُوصل بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، واقطعوا ما أمر الله به أن يُقطع بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتحذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾؛ يرضَ عنكم،

وبدِّلوا حرصكم على الدنيا فتورًا، وفتوركم عن الآخرة حرصًا، وعوضوا عن نقصكم في طلب الباقي ازديادًا، وعن ازديادكم في طلب الفاني نقصًا، من قبل أن يغشيكم غواشي الندم، ويطوف عليكم طوائف العدم، فلا دنيا أدركتم، ولا بعقبى تمسكتم، وأنصتوا لما يلقى إليكم من الحكمة، فإنها تنقش صور نفوسكم المستجنة في الأجسام، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الأجنة في الأرحام، واعلموا أنها نعمة الله سبحانه على خالصة عباده، وأنتم بها مشمولون، وعلى حالتي حفظكم لها وإضاعتكم لا محالة مسئولون. قال الله أصدق القائلين: ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾. زعم الزاعمون أنه الماء البارد في اليوم الصائف، وحمى الماء البارد للبهائم كما للإنسان مباح، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح، وهو علم الحقيقة الذي يؤثر في النفوس اللطيفة لصلاح المعاد، أكثر مما يؤثر الماء البارد لصلاح الأجسام.

وفسَّر بعض مفسري الشيعة أن النعيم المسئول عنه هو ولاية علي بن أبي طالب (ص)، وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصحة التوحيد، ومعرفة الحدود الوقوف على معالم الإيمان، وعلم التأويل الذي نفك به أقفال القرآن، وكذبوا إن اعتمدوا في معرفة الله سبحانه على عقولهم، وادعوا وقوع الغناء فيها عن الرسول والوصي، على ما عليه رأي كثير من الشيعة، بزعمهم من الاستظهار بالولاء والاقتداء في معرفة التوحيد بذوي القياس والآراء، والجحود بالتأويل الذي ينفذ من ظلمات الاختلاف ويفضي إلى نور الائتلاف، وإنما الافتقار إلى الرسول والوصي عليهما السلام لبلوغ ما هم بزعمهم بالغوه من معرفة الله جلَّ جلاله، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصح من دونهما، فأي حاجة تبقى بعدها إليهما للناس، وأية فضيلة تخلص لهما، وسوى هذا فإن كانت المعتزلة التي هي الفئة المبرزة بدعاوي معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول، نزولًا على رأي بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند مَن أشرنا إليهم من الشيعة يقتدون بهم في توحيد ربهم، والقول في العدل على قضايا

مذهبهم، فلم لا يكونون مأمونين على الإمامة التي هي دونها فيرجعوا إلى ربهم فيها، ولا يناقضوهم في نقض مبانيها، عهد من يكون مأمونًا على انتظار، ولا يكون مأمونًا على دينار؛ فقد اختل عليهم القول بولاية علي (ص) بقطعهم ما أمر الله به أن يُوصل من نظام الإمامة في ولده، فصاروا في معالم توحيدهم وعدلهم على أضدادهم عيالًا، ولو فاءوا إلى جملة المعتصمين بحبل الله الممدود باتصالها لوردوا عيونًا وظلالًا؛ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم، وقد كان قرئ عليكم من قول الله سبحانه: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد بهذا مثلا﴾. ما شفع بالإبانة عن معنى الحق، ولم سُمي حقًّا؟ وإن ذلك جهة كونه أصلًا يحتمل الوضع عليه، وانتهى الشرح إلى القول بأن الأشكال الجسمانية الكثيفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة، ومثال ذلك: أن السماوات والأرض وما بينهما محمولة على قوة إلهية لطيفة يعبر عنها بأمر الله، كما قال الله سبحانه: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، وكذلك أجسام البشر على ثقلها محمولة على الأرواح اللطيفة التي هي من أمر الله سبحانه: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية. فقد تثبت العلم أن النفسانيات حاملة والجسمانيات محمولة عليها، وأن النفوس المحقونة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم ثابت إلى عالم النفس الذي هو الحق والأصل الحامل، وثبتَ أيضًا من ائتلاف الجسم والنفس الإنسانية عن غير قصد منها ولا إرادة، وتفرقتهما عن غير قصد ولا إرادة، على كون تألف النفس الكلية بالجسم الكلية، وعالم الجسم من السماء والأرض وما بينهما أيضًا عن غير قصد منهما ولا إرادة، بل بأمر المبدع سبحانه، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها وأنجمها، وسفلها وعلوها، أمكنته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين الأنفس والأجسام الذي يصير به عامر الأجسام خرابًا. وأنتم تسمعون ما نقرؤه الآن عليكم من قوله تعالى: ﴿يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا

وما يضل به إلا الفاسقين﴾، وما نلوح به في معناه. وقال قوم: إنَّ الضلال والهدى من الله سبحانه، وهم جمهور العامة، واستشهدوا عليه بهذه الآية، وما هو في معناها من مثل قوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾، وقوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾، ونظائرها كثيرة في القرآن.

وقال أهل الرأي: إنه إن كانت الصورة هذه فقد بطل ثواب المحسنين وعقاب المسيئين، وإن لهذه الآيات تأويلًا يرجع إليه ويحمل الأمر عليه، وهو مثل قولهم في معنى الآية: ﴿يضل به كثيرًا ويهدي به كثيرا﴾ أي: يضل به عن الثواب الضالين، ويهدي به إلى الثواب المهتدين بفعلهم وكسب أيديهم، واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، وما يجري مجراه وهو كثير في كتاب الله تعالى.

وقد سُئل الصادق عليه السلام عن ذلك، فقيل: يابن رسول الله، الناس مجبورون على المعاصي؟ فقال: الله أعدل أن يجبر خلقه على المعاصي، ثم يعاقبهم عليها. قيل: فمفوض إليهم؟ قال: هو أعز من أن يكون لأحد في ملكه سلطان. قيل: فكيف ذلك؟ قال عليه السلام: أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض، فقوله تعالى: ﴿يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا﴾ يوجب أن كثير الضالين قليل وقليل المهتدين كثير؛ وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة لا بجسمه الكثيف، فالنفس الصالحة منسرحة في فضاء عالم النفس منفسحة، وصاحبها قليل من حيث الجسم المعدود المحصور، كثير من حيث النفس غير المحصورة، قال الله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾، والنفس الطالحة ضيقة حرجة كأنفس البهائم لا خطر لها في العالم العلوي، فأربابها وإن كثروا عددًا فلقد قلوا محصولًا، كما قال الله سبحانه: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع

الناس فيمكث في الأرض﴾، وكما قال سبحانه: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام: **«لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك مما طلعت الشمس عليه»**. وقوله: ﴿يضل به كثيرًا ويهدي به كثيرًا وما يضل به إلا الفاسقين﴾، معنى الفسوق الخروج من الطاعة وعقد البيعة، وأما «الفاسقين» فمن الفسوق، ففسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام الذي هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فنقض بيعة الله، وفيه قال سبحانه: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾، ثم نزل عن مكانه في آخر الأدوار الذي هو دور محمد صلى الله عليه وسلم فنقض بيعة الغدير، وسار الآخر على منهاج الأول، فإبليس إمام الفاسقين أولًا، وهو إمام الفاسقين آخرًا، جعلكم الله براء من الفاسقين، وألحقكم بالصالحين؛ لتكونوا لهم في منازلهم مرافقين، والحمد لله الذي له في إظهار دينه أمر يبلغه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، وصلى الله على رسوله الأمين، محمد المبعوث بالبرهان المبين، وعلى وصيه السني الأقدار، علي بن أبي طالب معدن الفخار، وعلى الأئمة من ذريته هداة الحق، وأولياء الحق.

هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يُلقِيها كبار الدعاة على جمهور المستجيبين، كل بحسب درجته وحده في مراتب الدعوة، فكل مجالس التأويل كما ذكرنا هي تطبيق النظرية التي أطلقت عليها نظرية المثل والممثول، وكل العقيدة الفاطمية إنما تدور تدور حول الإمام وولايته، ومحاولة إثبات أن الله سبحانه أشار إلى الأئمة في كتابه الكريم ورمز إليهم فيه، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة الأئمة وولايتهم وتصديق ما جاءوا به، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم التأويل الباطن، وأمرهم بستره إلا لمستحقيه من المؤمنين.

الفصل الرابع
أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١- بنو النعمان[١]

لا أكاد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لهاتين الاسرتين: أسرة عبد الحكم[٢] قبل العصر الطولوني وأثنائه، وأسرة النعمان في العصر الفاطمي، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر، وكان بين بني عبد الحكم مَن اتجه إلى التاريخ وتدوينه. كذلك كان بين بني النعمان من دوَّن التاريخ، وكان بنو عبد الحكم مقربين إلى الولاة في مصر، كذلك كان بنو النعمان في مكانة لا تقربها مكانة أخرى لدى أئمة الفاطميين، فالأسرتان -بنو عبد الحكم وبنو النعمان- من أشد الأسرات أثرًا في الحياة المصرية، ولا سيما من الناحية العقلية.

أَسَّسَ أسرة النعمان رجل عُرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمي، ومن أكثرهم تأليفًا للكتب، وتُعَدُّ مؤلفاته من الأسس التي تبعها من جاء بعده من علماء هذا المذهب، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقومها لدى طائفة البهرة الإسماعيلية، هذا الرجل هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي، ويُعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان؛ تمييزًا له عن سَمِيِّه أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف. اختلف الناس في تاريخ مولده، فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى أنه وُلد سنة ٢٥٩[٣]، وتبعه الأستاذ ماسينيون في ذلك

(١) راجع ما كتبناه عن بني النعمان في مقدمة كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة (طبع دار الفكر العربي).
(٢) راجع ما كتبناه عن بني عبد الحكم في كتاب أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة.
(٣) JA o.s. ١٩٠٧ PVol. XXVIIP. ٢٢٧.

الرأي، ولكن الأستاذ آصف فيظي خالفهما وذهب إلى أنه ولد في العشر الأخير من القرن الثالث[١]، وليس لدينا ما يرجح أحد الرأيين؛ بل نصرح بأنه لم يصلنا شيء عن نشأته الأولى، ولا عن آبائه وأسرته، إلا ما رواه ابن خلكان: أن والده عبد الله محمد قد عمَّرَ طويلًا، وأنه كان يحكي أخبارًا كثيرة نفيسة حفظها في كبره، وتوفي في رجب سنة ٣٥١، وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان، ودُفِن بأحد أبواب القيروان[٢]، فحياة الأسرة غامضة أشد الغموض، ولم يحفظ التاريخ شيئًا عنها، ولا أدري من أين استقى الأستاذ جوثيل ما رواه من أن والده النعمان كان من رجال الأدب، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك.

وليس لدينا شيء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦هـ، وقبل اتصاله بعبيد الله المهدي الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية، إلا أنه كان مالكي المذهب، وتحول إلى المذهب الفاطمي[٣]، ولكن مؤرخي الشيعة الاثنى عشرية قالوا: إن النعمان كان مالكي المذهب، ثم تحول إلى الشيعة الاثنى عشرية، ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية[٤]. ويذهب أبو المحاسن إلى أنه كان حنفي المذهب قبل أن يعتنق المذهب الفاطمي[٥]، ولكن إذا أمعنا النظر في هذه الخلافات وجدنا أن الأرجح هو ما رواه ابن خلكان، فالمذهب المالكي هو المذهب الذي كان يسود شمال إفريقية والأندلس، على أن المذهب الحنفي كان قليل الانتشار بين المسلمين في إفريقية وفي مصر أيضًا، وأن خاصة تلاميذ مالك كانوا مصريين، وعن مصر انتقل هذا المذهب المالكي إلى شمال إفريقية

(١) I.R.SIIP.٣٤.
(٢) وفيات الأعيان: ج٢، ص١٦٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المستدرك: ج٣، ص٣١٣.
(٥) النجوم الزاهرة: ج٤، ص٢٢٢.

والأندلس، وساد هذه البلاد حتى قلَّ أن تجد فيها مذهبًا آخر من مذاهب أهل السنة، فمن المرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده، أمَّا ما يدَّعيه الأستاذ آصف فيظي أن النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره، وأنه اتخذ التقية والستر خوفًا على نفسه وعلى مذهبه، فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده. كذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدي سنة ٣١٣هـ؛ أي بعد أن أظهر المهدي نفسه في المغرب، وهزم الأغالبة، واحتل ديارهم. دخل النعمان في خدمة المهدي واتصل به، ولا ندري نوع الخدمة التي كان يؤديها ولا الصلة التي اتصلها به، ولكن بعد وفاة المهدي اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه، وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب، أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئًا. ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول مَن ولي قضاءها، بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية.

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقربًا منه، وظل قاضي قضاة هذه المدن ومن تحته قضاتها، وإلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة، فاشتدت صلة النعمان به، حتى أنه كان يجالسه ويسايره، وقلَّ أن يفارقه بعد أن كان مستوحشًا منه عقب ولايته، ولكن المعز طلب إليه أن يكون في عهده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسايرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز. ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢هـ اصطحب معه بني النعمان، وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجيش، وكان من الطبيعي أن يقلد النعمان قضاء مصر، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبي طاهر الذهلي محمد بن أحمد الذي كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨هـ، وطلب إلى أبي طاهر أن يحكم بفقه الفاطميين، فكان لا بد للقاضي من

أن يسترشد في أحكامه بالقاضي النعمان، وما زال كذلك حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣هـ.

ويقول ابن حجر: إن النعمان كان يسكن مضر، أي الفسطاط، ويغدو منها إلى القاهرة في كل يوم[١]. ويروي ابن خلكان عن المسبحي أن النعمان كان من أهل العلم والفقه والدين والنبل ما لا مزيد عليه[٢]. ونقل ابن خلكان عن ابن زولاق أن النعمان بن محمد القاضي كان في غاية الفضل، من أهل القرآن والعلم بمعانيه، وعالمًا بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس، مع عقل وإنصاف[٣].

وكلُّ مَن تحدث عن النعمان من المؤرخين يذكر فضله وعلمه وسعة ثقافته، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الكتب الكثيرة التي ألَّفَها النعمان، والتي أصبحت عمدة كل باحث في المذهب الفاطمي، بل أصبحت الأصل الذي يستقي منه علماء المذهب، فلا أكاد أعرف عالمًا من علماء الدعوة الفاطمية لم ينهج نهج النعمان في فقهه، أو اختلف معه في رأي في المسائل الفقهية، وقد يكون ذلك لأن النعمان قال في كتابه المجالس والمسايرات: إن الإمام المعز لدين الله طلب إليه أن يلقي على الناس شيئًا من علم أهل البيت، فألف النعمان كتبه، وكان يعرضها على المعز فصلًا فصلًا وبابًا بابًا حتى أتمها، فهو يقول مثلًا:

أمرني المعز لدين الله (صلع) بجمع شيء لخَّصه لي وجمعه وفتح لي معانيه وبسط لي جملته، فابتدأت منه شيئًا ثم رفعته إليه، واعتذرت من الإبطاء فيه لما أردته من إحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته (ص)، فطالعته في مقداره، فوقع إليَّ: يا نعمان، لا تبال كيف كان القدر مع إشباع في إيجاز، فكلما

(١) رفع الإصر: ص١٣٦ ب، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٦.
(٣) المصدر نفسه.

أوجزت في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن، والذي خشيت من أن يستبطأ في تأليفه، فوالله لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما تعتقده من النية ومحض الولاية، لما كنت تستطيع أن تأتي على باب منه في أيام كثيرة، ولكن النية يصحبها التوفيق[١].

وفي كتابه هذا كثير من النصوص التي تدل على أنه كان يعرض كتبه على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس، كما أنه كان يقرأ مجالس المحكمة التأويلية، ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعي[٢]. وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن النعمان كان من الدعاة، وإن كان مؤرخو المذهب المحدثون، مثل الداعي إدريس، يحدِّثنا في كتابه «عيون الأخبار» أن النعمان كان في مكانة رفيعة جدًّا قريبة من الأئمة، وأنه كان دعامة من دعائم الدعوة، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولي مرتبة داعي الدعاة. ويُخيل إليَّ أن النعمان كان داهية في سياسة التقرب إلى الأئمة، وأنه استطاع بعلمه وثقافته أن يجذب إليه قلوبهم، فقرَّبوه إليهم وعرف أسرارهم ونياتهم فوضع هذه الكتب الكثيرة، وادَّعَى أن الأئمة هم الذين لقنوه إياها، بل لعلي لا أغالي إذا قلت: إن النعمان هو أول من دوَّن فقه المذهب الفاطمي، فلا أكاد أعرف فقيهًا من فقهاء المذهب قبله كتب في هذا الفن، وبين يدي الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية[٣]، وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب الإسماعيلية، وأمامي فهرست ابن النديم، ومجموعة خطية قديمة لمؤلف مجهول جمع فيه أسماء الكتب التي أُلِّفَتْ منذ أوائل الدعوة الإسماعيلية، فلم أعثر في هذه الكتب كلها على كتاب واحد في الفقه الإسماعيلي قبل القاضي النعمان بن محمد. فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم، وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات، ولا سيما أن النعمان ذكر في كتبه أنه اقتبس هذه

(١) المجالس والمسايرات: ورقة ٧٥ ب.

(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٦.

(٣) InAVoW: Griol to Ismaih Lierqure.

العلوم من الإمام! حتى قال المعز عن النعمان: مَن يؤدي جزءًا من مائة مما أدَّاه النعمان أضمن له الجنة بجوار ربه[١]. ويحدثنا المؤيد في الدين في سرته أن الوزير اليازوري قال له: إن النعمان بنى هذا الأمر، وأن أحق الناس بمكانه أبناؤه[٢]؛ فالنعمان إذن قد أدى للدعوة الفاطمية هذا الفضل الذي عرفوه له؛ إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون على الفقه الذي وضعه لهم النعمان، وربما على التأويل الذي ذكره في كتبه.

ولننظر الآن إلى هذه الكتب التي وضعها النعمان لأهل الدعوة، فيقول ابن خلكان: إن النعمان ألَّفَ لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع، وعمل في المناقب والمثالب كتابًا حسنًا، وله ردود على المخالفين له رد على أبي حنيفة، وعلى مالك والشافعي، وعلى ابن سريج، وكتاب اختلاف الفقهاء ينتصر فيه لأهل البيت، وله القصيدة الفقهية التي لقبها بالمنتخبة[٣]. وسرد الأستاذ إيفانوف مؤلفات القاضي النعمان، فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتابًا، بعضها لا يزال يحتفظ به أتباع المذهب وهم طائفة البهرة، ومنها كتب عُثِر على بعض أجزائها، ومنها ما فُقِد ولم يُعرف إلا أسماؤه، ولا تعرف مكتبات أوربا إلا ستة كتب من كتب النعمان هي:

(١) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين، وأحضرت دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه.

(٢) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وفي دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه.

(١) كتاب عيون الأخبار: ج٦، ص٤١.

(٢) السيرة المؤيدية.

(٣) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٦.

(٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وفي مكتبة جامعة القاهرة صورة فتوغرافية منه.

(٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن.

(٥) جزء من كتاب المجالس والمسايرات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وفي مكتبة جامعة القاهرة.

(٦) كتاب الهمة في اتِّباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن، وعندي نسخة خطية منه.

ويحتفظ أصحاب الدعوة الآن في مكتباتهم الخاصة بالكتب الآتية:

(١) افتتاح الدعوة، وعندي نسخة خطية منه، كما تحتفظ مكتبة جامعة القاهرة بصورة منه.

(٢) كتاب الإيضاح.

(٣) كتاب الينبوع.

(٤) مختصر الآثار.

(٥) كتاب الطهارة.

(٦) القصيدة المختارة.

(٧) القصيدة المنتخبة.

(٨) منهج الفرائض.

(٩) الرسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة.

(١٠) اختلاف أصول المذاهب.

(١١) كتاب التوحيد والإمامة.

opeikandl.com

(١٢) مناقب بني هاشم.

(١٣) تأويل الرؤيا.

(١٤) مفاتيح النعمة.

أمَّا كتبه التي لم يُعثر عليها وعُرفت أسماؤها فهي:

(١) مختصر الإيضاح.

(٢) كتاب الأخبار.

(٣) كتاب الاقتصار.

(٤) كتاب الاتفاق والافتراق.

(٥) كتاب المقتصر.

(٦) كتاب يوم وليلة.

(٧) كتاب كيفية الصلاة.

(٨) الرسالة المصرية في الرد على الشافعي.

(٩) كتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي.

(١٠) دامغ الموجز في الرد على العتكي.

(١١) نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل.

(١٢) حدود المعرفة في تفسير القرآن والتنبيه على التأويل.

(١٣) كتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق.

(١٤) كتاب في الإمامة في أربعة أجزاء.

(١٥) كتاب التعاقب والانتقاد.

obeikandl.com

(١٦) كتاب الدعاة.

(١٧) كتاب الحلي والثياب.

(١٨) كتاب الشروط.

(١٩) أرجوزة ذات المنن. وهي في سيرة الإمام المعز.

(٢٠) أرجوزة ذات المحن وهي في تاريخ ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

(٢١) كتاب معالم المهدي.

(٢٢) كتاب منامات الأئمة.

(٢٣) كتاب التقريع والتعنيف.

هذه هي الكتب التي تركها النعمان بن محمد، ولعل أهم كتاب خالد له هو كتاب «دعائم الإسلام، في ذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام»، وهو الكتاب الذي أمر الظاهر بأن يحفظه الناس، وجعل لمن يحفظه مالًا جزيلًا، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين؛ فدعائم الإسلام عندهم الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها، فهو يتحدث عن ذلك كله بشيء منه الإطناب، ويروي عن كل فريضة ما ورد عنها في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية، وما جاء عن الأئمة. ومَن يقرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك، لا يكاد يجد اختلافًا إلا في بعض أمور لا تمس الدين في شيء، اللّٰهم ما ورد في القسم الخاص بالولاية.

والفصل الخاص الذي في أول الكتاب تحدث فيه عن الإيمان، وجعل الولاية شرطًا أساسيًّا للمؤمن، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين وسننه والمعاملات وغيرها، فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية.

obeikandl.com

وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المذهب -منذ عُرِف هذا الكتاب- إذا عرفنا أن عالمين من أكبر علمائهم ذكراه في كتبهما، واعتمدا عليه ونوَّها به؛ أما العالم الأول فهو أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرماني المتوفى ٤١٢هـ، فقد ذكر في مقدمة كتابه «راحة العقل» الكتب التي يجب أن تُقرأ قبل قراءة راحة العقل، ومن هذه الكتب كتاب «دعائم الإسلام»، وأما العالم الثاني فهو المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي المتوفى ٤٧٠هـ، فقد ذكر في السيرة المؤيدية أنه كان يعقد مجلسًا خاصًّا كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبي كاليجار البويهي فصول كتاب «دعائم الإسلام». ويُعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية، على الرغم من أنه في علم الظاهر، ويُعدُّ من كتبهم السرية التي لا يقربها إلا علماء المذهب فقط.

وقد أَتْبَعه القاضي النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام، واسمه الكامل: كتاب تربية المؤمنين، بالتوقيف على حدود باطن علم الدين، في تأويل دعائم الإسلام. وهو في ذكر التأويل الباطني للأحكام والفرائض التي وردت في كتاب دعائم الإسلام، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية، وعليه اعتمد الدعاة بعد النعمان[١]. وقد توفي النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب.

ومهما يكن من شيء فالقاضي النعمان يُعدُّ من أكبر علماء الدعوة وفقيهها الأعظم، وتوفي هذا الرجل بمصر سنة ٣٦٣هـ.

وكان هذا الفقيه رأس هذه الأسرة ومؤسسها، وجاء بعده أبناؤه وحفدته، وعُرفوا جميعًا بالعلم والفقه، وتولوا الدعوة والقضاء بعده.

وُلد ابنه الأكبر أبو الحسين علي بن النعمان بالقيروان في رجب سنة٣٢٨هـ[٢]، وقدم مصر مع باقي أفراد الأسرة في صحبة المعز لدين الله، ولما

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك في مقدمة كتاب «المجالس المستنصرية».
(٢) رفع الإصر: ورقة ٨٥.

مات النعمان اشترك علي بن النعمان في قضاء مصر مع أبي طاهر الذهلي، فظلا يقضيان حتى توفي المعز وولي العزيز، وعرض لأبي طاهر القاضي مرض الفالج، ففوض العزيز الحكم إلى علي بن النعمان، وذلك في صفر سنة ٣٦٦، وظل منفردًا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام العزيز حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضي بين الناس، فقام من وقته ومضى إلى داره وأقام عليلًا أربعة عشر يومًا، وتوفي يوم الإثنين لستٍّ خلون من رجب سنة ٣٧٤هـ، وصلى عليه العزيز، وهو أول مَن لُقِّب بقاضي القضاة في مصر، وكان عالمًا فقيهًا مثل أبيه، وكان شاعرًا أورد له الثعالبي شيئًا من شعره، مثل قوله:

ولي صديق ما مسني عدم ... مذ وقعت عينه على عدمي
أغنى وأقنى فما يكلفني ... تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمري لما قعدت به ... ونمت عن حاجتي ولم يَنَم[1]

ومن شعره -وقيل: بل من شعر أخيه محمد بن النعمان-[2]:

رب خود عرفت في عرفات ... سلبتني بحسنها حسناتي
حرمت حين أحرمت نوم عيني ... واستباحت دمي بذي اللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت ... من جفوني سوابق العَبَرات
لم أَنَلْ من منى منى النفس حتى ... خفت بالخيف أن تكون وفاتي[3]

ومن شعره أيضًا:

صديق لي له أدب ... صداقة مثله نسب
رعى لي فوق ما يرعى ... وأوجب فوق ما يجب
فلو نقدت خلائقه ... لبهرج عندها الذهب[1]

(١) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٠٥.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي: ج١، ص٣٠٦.
(٣) دمية القصر للباخرزي: ص٨٨.

فمن هذه الأبيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعرًا، رقيق الشعر، عذب الديباجة، متلاعبًا باللفظ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملًا حتى نستطيع أن نكوِّنَ رأيًا دقيقًا في شاعريته.

ولا أدري أيضًا من أين استقى الأستاذ آصف فيظي أن أبا الحسن علي بن النعمان كان في مرتبة داعي الدعاة، فليس لديَّ من النصوص ما يؤيد ذلك، بل الذي ذكره المؤرخون أن أول مَن أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين هو ولده الحسين بن علي بن النعمان على نحو ما سنذكره بعد.

ولما توفي علي بن النعمان أرسل الإمام العزيز بالله إلى أبي عبد الله محمد بن النعمان يقول: إنَّ القضاء لك من بعد أخيك، ولا نخرجه عن هذا البيت[٢]. وهكذا ولي مرتبة قاضي القضاة بعد أخيه، وكان في حياة أخيه ينوب عنه في القضاء، فإنه لما سافر العزيز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨، وسار عليٌّ في صحبته استخلف أخاه محمدًا في القضاء. ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥هـ[٣]، وقدم القاهرة مع أفراد الأسرة، وما زال بها حتى ولي القضاء، وكان جيد المعرفة بالأحكام متفننًا في علوم كثيرة، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس[٤]. وقد مدحه الشاعر عبد الله بن الحسن الجعفري السمرقندي بقوله:

تعادلت القضاة عليَّ أمًا ... أبو عبد الإله فلا عديل
وحيدٌ في فضائله غريب ... خطيرٌ في مفاخره جليلُ
تألق بهجة ومضى اعتزامًا ... كما يتألق السيف الصقيل

(١) يتيمة الدهر: ص٣٠٥، وابن خلكان: ج٢، ص١٦٧.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٧.
(٣) رفع الإصر: ص١٢٩.
(٤) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٨.

ويقضي والسداد له حليفٌ ... ويعطي والغمام له زميلُ
لو اختبرت قضاياه لقالوا ... يؤيده عليها جبرئيلُ
إذا رقي المنابر فهو قسٌّ ... وإن حضر المشاهدَ فالخليلُ

فلما قرأ محمد بن النعمان هذه القصيدة كتب إلى الشاعر:

قرَأْنَا من قريضك ما يروقُ ... بدائع حاكها طَبْعٌ رقيقُ
كأنَّ سطورها روض أنيقُ ... تضوَّع بينها مسكٌ فتيقُ
إذا ما أُنشدت أرجت وطابتْ ... منازلها بها حتى الطريق
وإنا تائقون إليك فاعلمْ ... وأنتَ إلى زيارتنا تتوقُ
فواصلنا بها في كل يوم ... فأنتَ بكل مكرمة حقيقُ[1]

ومما يُروى له أيضًا قوله:

أَيَا مشبه البدر بدر السماء ... لسبع وخمس مضت واثنتين
ويا كامل الحُسْن في نعته ... شغلتَ فؤادي وأسهرتَ عيني
فهل لي من مطمع أَرْتَجيه ... وإلا انصرفتُ بخفي حُنين
ويشمت بي شامتٌ في هواك ... ويفصح لي ظلت صفر اليدين
فإما مننت وإما قتلت ... فأنت القدير على الحالتين[2]

وفي سنة ٣٧٥هـ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ابنة القائد جوهر الصلقي في مجلس العزيز، ثم قرر ابنه هذا في نيابته عنه في الأحكام بالقاهرة ومصر. وعلت منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز بالله، حتى أنه كان يصعد معه على المنبر[3]، وكان مهيبًا محترمًا، حتى أن أحدًا لم يكن يخاطبه

(١) ابن خلكان: ج٢، ص١٦٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

إلا بسيدنا[١]. ويروي ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصري: «ولم نشاهد نمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان، ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق، ووافق ذلك استحقاقًا لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة[٢]. فكانت هذه المكانة التي حظي بها هذا القاضي سببًا في أن ينقم عليه الوزير يعقوب بن كلس. ويُخيل إليَّ أن الوزير كان يخشي اتساع نفوذ بني النعمان، فحاول ما استطاع أن يكسر شوكتهم، وينقص من قدرهم، فكان يعمد إلى أن ينقض أحكام القاضي. ويروي ابن حجر العسقلاني عن المسبحي أن الوزير ابن كلس كان كثير المعارضة لبني النعمان في أحكامهم»[٣]. وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضمره لهم، وبعد أن توفي العزيز بالله سنة ٣٨٥ وولي الحاكم بأمر الله، أقرَّ القاضي محمد بن النعمان على ما بيده من القضاء، وزادت منزلته عنده رفعة، ولكن محمدًا تزاحمت عليه العلل، فتوفي ليلة الثلاثاء رابع صفر سنة ٣٩٩، وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه، وحزن الحاكم لوفاته، فلم يولِّ أحدًا مرتبة القضاء إلا بعد شهر فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان.

ولد أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان بالمهدية سنة ٣٥٣هـ، وقدم مع أسرته إلى القاهرة المعزية، ومهر في علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء المذهب الفاطمي، وكان ينوب أحيانًا عن عمه محمد بن النعمان في القضاء حتى وليه بعد وفاة عمه. وفي صفر سنة ٣٩١ بينما كان القاضي جالسًا في الجامع بمصر يقرأ عليه الفقه، أُقيمت صلاة العصر فقام يؤدي الفريضة، وبينما هو في الركوع إذ هجم عليه رجل مغربي وضربه بمنجل في رأسه ووجهه، فحُمِل

(١) الكندي: ص٥٩٤.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص١٩٨.
(٣) رفع الإصر: ص١٢٩.

القاضي جريحًا إلى داره، وظل حتى اندملَ جرحه، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلًا بالسلاح، وكان إذا صلى وقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة، ثم يصلي حرسه، ولا نكاد نسمع أن قاضيًا من قضاة المسلمين في التاريخ الإسلامي كله كان يصلي والشرطة تحرسه غير الحسين بن علي بن النعمان. وزاد الحاكم في إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته، وفوض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة، وولاه الدعوة وقراءة مجالس الحكمة التأويلية بالقصر وكتابتها، وهو أول قاض أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين[١]. ويظهر أنه في ذلك الوقت دبَّ دبيب الشقاق بين أبناء هذه الأسرة، فهذا القاضي طالبَ ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ببعض ودائع كانت في الديون أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء، وتشدد القاضي في مطالبة ابن عمه بهذه الودائع حتى ألزمه أن يبيع كل ما خلفه أبوه سدًّا لهذه المطالبة، ولست في مركز يسمح لي أن أقول: أكان تشدد القاضي عن ورع ودين أم عن حسد وغيرة وشقاق بين بني الأعمام. ومهما يكن من شيء فقد صُرف هذا القاضي عن رتبة القضاة والدعوة في رمضان سنة ٣٩٤، وأمر الحاكم بحبسه، ثم ضُربت عنقه في مطلع سنة ٣٩٥هـ، وهكذا لقي حتفه بيد الحاكم، وبعد أن كان مكرمًا لديه مقربًا إليه.

وولي القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان، المولود في أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥هـ، وهو الذي كان ينوب عن أبيه في القضاء، وكان عالمًا من علماء الدعوة الفاطمية يُنسب إليه كتاب «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم في أصول الدين»، وهو الكتاب الذي رد عليه القاضي أبو بكر الباقلاني[٢]، وقيل: إن هذا الكتاب من تصنيف عمه علي بن النعمان. ومهما

(١) الكندي: ص٥٩٦ وما بعدها.
(٢) الكندي: ص٦٠٣.

يكن من شيء فالقاضي عبد العزيز بن محمد هو أول مَن ولي النظر على دار العلم[١]، وكان يجلس في الجامع، ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان «اختلاف أصول المذاهب»، وعلى الرغم من أنه خصَّ بمجالسة الحاكم ومسايرته، فإنه لم يَنْجُ من نزوات الحاكم وتقلباته، فعزله عن القضاء سنة ٣٩٨هـ، ثم اعتقله في السنة التالية، ثم عفا عنه وأعاد إليه النظر في المظالم وخلع عليه، وفي سنة ٤٠١ اضطر هذا القاضي إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جوهر الصقلي، فصادرَ الحاكم بيوتهما وحمل كلَّ ما كان فيها، ثم كتب الحاكم لهما بالأمان وخلع عليهما، ولكنه أمر بعد ذلك بقتلهما في ثاني عشر جمادى الآخر سنة ٤٠١هـ.

وبعد المأساة ضعف أمر بني النعمان وساءت حالهم، ولم تَبْقَ لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ، حتى أن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولي القضاء سنة ٤١٨هـ، ولكنه لم يمكث في هذه المرتبة سوى عام وشهرين، وأُعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧هـ، وأُضِيفت إليه الدعوة. ويقول عنه المؤيد في الدين: «وتوجهت إلى الموسوم بالقضاء والدعوة، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا، فرأيته رجلًا يصول بلسان نسبه في الصناعة التي وُسِم بها دون لسان سببه، فارغًا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته»[٢]. وعُزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١هـ، ويحدثنا المؤيد أن نساء بني النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر، وأَلْحَفْنَ عليها بالسؤال لإعادته، فعينه الوزير اليازوري ٤٤٢هـ نائبًا له في الدعوة، فقبل القاسم أن يكون تابعًا لداعي الدعاة بعد أن كان أصلًا في هذه الخدمة، واستمر القاسم بن عبد العزيز نائبًا لليازوري في مرتبة الدعوة

(١) المصدر نفسه.

(٢) السيرة المؤيدية.

حتى أقعده المرض، فأناب ابنه محمد بن القاسم في الدعوة بدله، واستمر محمد نائبًا عن والده في نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠هـ. ثم لم نَعُدْ نسمع شيئًا عن هذه الأسرة التي ظلتْ زهاء قرن في مكانة رفيعة عالية، وفي اتصال بالأئمة الفاطميين، كما كان لهذه الأسرة أثرها في بعث العقائد الفاطمية في نفوس الناس بما ألَّفوه من كتب، وما ألقوه من مجالس الدعوة، وبما كانوا يحكمون به في القضايا على حسب فقه المذهب الفاطمي الذي وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة.

٢- يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوي في الحياة العقلية بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس، وُلد ببغداد في أسرة يهودية، ونشأ بها حيث درس شيئًا من الكتابة والحساب، واتخذ التجارة متكسبًا له، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشتى الطرق والوسائل، ثم رحل مع أبيه إلى الشام في بعض مسائل تجارية، فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلًا للتجار بها، ثم فرَّ منها إلى مصر. قيل: إن سبب ذلك أنه اجتمع قِبله مالٌ عجزَ عن أدائه، فهرب[١]. وقيل: بل أرسله أبوه إلى مصر للتجارة بها[٢]. ومهما يكن من شيء فقد وفد يعقوب على مصر إبان ولاية كافور الإخشيدي، فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتصل بكافور، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كافورًا يقربه إليه ويثق به حتى اشتدت صلة يعقوب بكافور، فعرض عليه كافور الإسلام، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام، وذلك يوم الإثنين لثماني عشرة ليلة خَلَتْ من شعبان سنة ٣٥٦، ولزم التعبد ودراسة القرآن، ورتب لنفسه رجلًا من أهل العلم يدرس له أصول

(١) المقريزي: ج٣، ص٧.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص٣٣٣.

الدين الإسلامي، وكأنه في ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك، فعمل على إتمام النقص الذي كان يشعر به، وهو يهوديته السابقة، فأراد ألا يُرمَى بضعف إسلامه إذا بلغ ما تاقت إليه نفسه، فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية، وكأني بالوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وزير كافور، عرف ما كان يرمي إليه يعقوب، فخشي من صلة كافور بهذا اليهودي التاجر، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلس اشتدَّ مقت ابن حنزابة له، فنصب له الحبائل لإخراجه من البلاد، فلما توفي كافور سنة ٣٥٧ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين، وطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب، واتصل يعقوب بالمعز لدين الله، فقربه المعز إليه وصحبه معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون. وقيل: إنَّ ابن كلس هو الذي أَطْلَعَ المعز على أسرار مصر، وسهَّل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل.

وبعد أن استتب الأمر في مصر للمعز ونقل عاصمة ملكه إلى مدينة القاهرة، ولي يعقوب بن كلس الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة، وذلك في سنة ٣٦٣هـ، ومن مثل ابن كلس يصلح لأمر المال! فاستمر في عمله حتى سنة ٣٦٥، فقد زادت صلته بالمعز واكتسب حبه وثقته، فولاه المعز النظر في جميع أموره في قصره، وبعد قليل توفي المعز لدين الله ففوض العزيز بالله ليعقوب النظر في سائر أموره وجعله وزيرًا له، وذلك في المحرم ٣٦٧، وفي رمضان ٣٦٨ خلع العزيز عليه، ولقبه بالوزير الأجل، فكان يعقوب بن كلس أول وزير في مصر الفاطمية.

ويروي ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس: «أنه لما خلع على الوزير يعقوب بن كلس، كان مكينًا من العزيز وكنت حاضرًا مجلسه، فقلت: أيها الوزير، روى الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود أنه

قال: حدثني الصادق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن الشقي مَن شقي في بطن أمه، والسعيد مَن سعد في بطن أمه». وهذا علو سماوي. فقال الوزير: ليس الأمر كذلك، وإنما أفعالي وتوفيراتي وكفايتي ونيابتي ونيتي وحرصي الذي كان يُهجَى ويعاب، قد مات قوم ممن كان وبقي قوم. وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذي خرج من العزيز في ذكر تشريفه. قال ابن زولاق: فأمسكت، وقلت: وفَّقَ الله الوزير، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا صحيحًا. وقمت وخرجت وهو ينظر إليَّ. وحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسيني قال: عاتبت الوزير على ما تكلم به، وقلت: إنما روى حديثًا صحيحًا بجميع طرقه، وما أراد إلا الخير. فقال الوزير: خفي عنك، إنما هذا مثل قول المتنبي في كافور:

ولله سرٌّ في عُلَاك وإنما كلامُ العدا ضربٌ من الهذيانِ

وأجمعَ الناس على أن ذلك هجو في كافور؛ لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سبب، وابن زولاق هجاني على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فما أمكنني السكوت، وكان في نفسي شيء فجعلت كلامه سببًا(١). فمركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن يعتقد أن تهنئة ابن زولاق هجاء له، وشعوره بيهوديته الأولى، وأنه أصبح وزيرًا مقربًا إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتعمق في دراسة الدين الإسلامي حتى أصبح عَلَمًا من أعلام علماء الدعوة الفاطمية. ومع ذلك فنحن لا ندري السبب الذي من أجله اعتقل الوزير في القصر سنة ٣٧٣هـ عدة أشهر، فالمؤرخون لم يذكروا لنا شيئًا عن ذلك، ثم نرى العزيز يطلقه سنة ٣٧٤هـ، ويأمر بحمله على عدة خيول، وقُرئ سجل بردِّه إلى تدبير أمور الدولة مرة أخرى، ووهبه العزيز خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام

(١) معجم الأدباء لياقوت: ج٧، ص٢٢٥.

من المغاربة، فاتسعت دائرته وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب[١].

بجانب هذه المكانة الرفيعة التي بلغها الوزير يعقوب بن كلس، وهذا السلطان القوي الواسع الذي أحرزه، كان هذا الوزير محبًّا للعلم والعلماء، مشجعًا لمن طلب العلم، يغدق المنح والعطايا للكتاب والشعراء. ويروي ابن خلكان: «كان يعقوب يجمع عنده العلماء، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها، وكان ينصب كل يوم خوانًا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه[٢]، فكان من خاصة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الأسجاع[٣]، والتميمي المقدسي الطبيب الذي صنف للوزير كتابًا ضخمًا في عدة مجلدات سمَّاه: «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء»[٤]. وأخذ الوزير علم العروض عن شيخه البديهي، وبفتحه وهدايته قال الشعر[٥]، وبلغ هو نفسه في علم الفقه الفاطمي درجة أَهَّلَته لأن يؤلف الكتب ويعقد مجالس التأويل، فقد رتب لنفسه مجلسًا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والعدول، وغيرهم من وجوه الدولة[٦]. كما نصب مجلسًا في داره يحضره في كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل للمناظرة بين يديه[٧]، فرعايته

(١) المقريزي: ج٣، ص٨.
(٢) ابن خلكان: ج٢، ص٣٣٤.
(٣) ابن خلكان: ج٢، ص٣٣٤.
(٤) أخبار الحكماء للقفطي: ص٧٤.
(٥) الإشارة إلى من نال الوزارة: ص٢٢.
(٦) ابن خلكان: ج٢، ص٣٣٤.
(٧) المقريزي: ج٢، ص٣٣٤.

للعلم والعلماء ساعدته على أن يؤلف هذه الكتب التي قرأها على الناس، والتي منها كما ذكر ياقوت[١]:

(١) كتاب القراءات.

(٢) كتاب في علم الأبدان وصلاحها.

(٣) كتاب في الفقه مما سمعه من المعز والعزيز.

(٤) كتاب في الأديان وهو في الفقه.

(٥) مختصر الفقه، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية.

(٦) كتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه بعض الكتب التي ألفها هذا الوزير، ويقول إيفانوف: إنها فُقدت جميعها، ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه، وهو الكتاب الذي طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه[٢]. ويحدثنا المقريزي أن الناس كانوا يفتون بكتابه في الفقه، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر، وأن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقًا كل شهر تكفيهم[٣]، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول مَن جعل الجامع الأزهر جامعة علمية، ورتَّب لعلمائها الأرزاق. معنى هذا كله أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء، فاتسعت بفضله الثقافة، وازداد الإقبال على العلم، وكذلك لقي الشعر على يديه التشجيع الذي لقيه العلم، فقد كان الوزير بعد أن ينتهي من مجالسه العلمية يأذن للشعراء في إنشاده مدائحهم

(١) معجم الأدباء: ج١٠، ص١١٨، ط دار المأمون.
(٢) خطط المقريزي: ج٢، ص١٦٩.
(٣) خطط المقريزي: ج٣، ص٩.

obeikandl.com

فيه[١]، وكان يغدق عليهم الهبات والعطايا، ولعل أكثر الشعراء مدحًا له هو الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق، وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع، فمن قول ابن أبي الجوع -وقد مرض الوزير من علة أصابت يده-[٢]:

يد الوزير هي الدنيا فإن ألمَتْ ... رأيت في كل شيء ذلك الألما
تأمل الملك وانظرْ فرطَ علَّته ... من أجله، واسأل القرطاسَ والقلما
وشاهد البيض في الأغماد هائمة ... إلى العدا وكثيرًا ما روين دَمَا
وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلتْ ... كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجدُ إلا أن يؤيده ... ساق يقدم في إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معًا ... تحيفتنا خطوب تشعب الأمما
فقلْ لهذا وهذا أنتما شرفٌ ... لا أوهَنَ الله ركنيه ولا انهدما
كلاكما لم يزل في الصالحات يدًا ... مبسوطة ولسانًا ناطقًا وفَمَا
ولا أصابكما أحداث دهركما ... ولا طوى لكما ما عِشْتُمَا علمَا
ولا انْمَحتْ عنك يا مولاي عافية ... فقد محوت بما أوليتني العدما

ومن قول أبي الرقعمق:

إنَّ يعقوب قد أفاد وأقنى ... وأعاد الندى وأغنى الضعيفا
سلَّ سيفًا من البصيرة والرأ ... ي فأغناه أن يسل السيوفا
باذلًا للعزيز دون حماه ... مهجة حرة ورأيًا حصيفا
ما رأيناه قط إلا رأينا ... خلقًا طاهرًا وفعلًا شريفا
ورأينا قرمًا كبيرًا همامًا ... منعمًا مفضلًا رحيمًا رءوفًا[٣]

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) يتيمة الدهر: ج١، ص٢٣٩.

ووُجد بين شعراء مصر في ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس، ويحدثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا يعقوب بن كلس، وهجا كاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني بقوله:

قُـل لأبي نـصر صـاحب القـصر ... والمتـأتى لـنقض ذا الأمـر
انقـض عُـرَى الملـك للـوزير تَفُـزْ ... منـه بحـسن الثنـاء والـذكر
واعـط أو امنـع ولا تخـف أحـدًا ... فـصاحبُ القـصر لـيس في القـصر
ولـيس يـدري مـاذا يـراد بـه ... وهـو إذا مـا دَرَى فـما يـدري

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزيز، وأنشده الشعر، فقال له: هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء، فشاركني في العفو عنه. ثم قال هذا الشاعر أيضًا، وعرض بالفضل القائد:

تنـصر فالتنـصر ديـن حـق ... عليـه زماننـا هـذا يـدل
وقـل بثلاثـة عـزوا وجلـوا ... وعطـل مـا سـواهم فهـو عطـل
فيعقـوب الـوزير أب وهـذا الـ ... ـعزيز ابـن وروح القـدس فـضل

فشكاه يعقوب إلى العزيز فامتعض منه، إلا أنه قال: اعف عنه. فعفا عنه، ثم دخل الوزير على العزيز فقال له: لم يبقَ للعفو عن هذا معني، وفيه غض من السياسة، ونقض لهيبة الملك، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك، وسبك بقوله:

زبـارجي نـديم ... وكلـس وزيـر
نعـم عـلى قـدر الكلـ ... ـب يـصلح الـساجور

فغضب العزيز على هذا الشاعر، وأمر بالقبض عليه، ثم بدا للعزيز إطلاقه فأرسل يستدعيه، وكان للوزير عين في القصر فأخبره بذلك، فأمر بقتل الشاعر، فقُتِل[١].

وهكذا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أنصار ومحبون، وقد حزن الناس حين ابتدأت علته في الحادي والعشرين من شوال سنة ٣٨٠هـ، ونزل إليه العزيز بالله يعوده، وقال: «وددت أنك تُباع فأبتاعك بمالي، أو تُفدى فأفديك بولدي»[٢].

وتوفي يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خَلَوْن من ذي الحجة سنة ٣٨٠هـ، واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشييعه إلى مقره الأخير، وخرج العزيز من القصر على بغلة، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة، والحزن ظاهر عليه، وأقام ثلاثًا لا يأكل على مائدته ولا يحضرها مَن عادته الحضور، وأقام الناس عند قبر الوزير شهرًا، وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائه شاعر أجيزوا كلهم. فهذا كله يدل على أنه كان للوزير مكانة في نفس إمامه وفي نفوس معاصريه جميعًا، وذلك لما عُرف عنه من إنصافه وكرمه وعلمه، وما أظهره من شدة تمسُّكه بأهداب الدين الإسلامي على مذهب القوم.

٣- المؤيد في الدين داعي الدعاة[٣]

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث عن هذا العالم الذي بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه، ذلك هو المؤيد في الدين داعي الدعاة الذي عُرف في تاريخ الأدب العربي بمناظرته مع أبي العلاء المعري في تحريم أكل اللحم، والذي أراد الأستاذ مرجوليوث المستشرق

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٤٨.

(٢) المقريزي: ج٣، ص٩.

(٣) راجع «ديوان المؤيد داعي الدعاة»، وكتاب «السيرة المؤيدية»، طبع شركة الكاتب المصري.

الإنجليزي أن يعرف شيئًا عن حياته فخانه التوفيق، واكتفى بذكر اسمه دون حياته، فعلى الرغم من أن المؤيد لم يكن مصري المولد والنشأة فقد وفد على مصر، وأقام بها زهاء ثلاثين عامًا، واستمع له جمهرة من المصريين، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثَّر في الحياة العقلية المصرية بمبادئه التي كان ينادي بها. وفي مصر أخذ عنه لمك بن مالك قاضي الصليحيين باليمن، فنُقِلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن، وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالأستاذية في علوم الدعوة، وفي مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه، وألقى مجالسه التي بلغت الثمانمائة مجلس، فلا غرابة أن نتحدث عنه في كتابنا هذا، وهو كتاب خاص بمصر.

اسمه هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود الشيرازي، وُلد بشيراز في العشر الأخير من القرن الرابع من الهجرة، في أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهبًا لها، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمي، فنشأ ابنه هبة الله ليأخذ مكانته في الدعوة في هذا الإقليم، وأخذه منذ نشأته بالإلمام بكل شيء يخص الدعوة وأسرارها، وكاتب الحاكم بأمر الله بأن يولي ابنه هبة الله أمر فارس من بعده، وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه، وما لبث أن أصبح يملك نفوس أتباعه فانقادوا له الانقياد كله، فكانوا يفشون إليه أسرارهم الخاصة حتى مع أهل بيتهم، ويضحون في سبيله بأرواحهم، وكثر أتباعه حتى خشي السلطان أبو كاليجار البويهي سطوته ونفوذه، وهمَّ أن ينفيه مرارًا من شيراز، ولكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد، وبلغت كراهية السلطان أبي كاليجار للمؤيد أنه كان يكره سماع اسمه في مجالسه، ولكن المؤيد في الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبي كاليجار، وأن يجعل السلطان يستمع إليه، وأن يعقد مجالس المناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة؛ فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظريه، فاضطر السلطان أمام قوة بيانه ودامغ حجته إلى أن يخضع للمؤيد؛ بل لأن يدخل في دعوته، وأن يعقد مجلسًا خاصًّا

يلقي فيه المؤيد على السلطان شيئًا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمي من كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان.

كان ذلك كله سببًا في غضب جمهور أهل السنة في فارس، ولا سيما القضاة والعلماء، فأخذوا يوغرون صدور المقربين من أبي كاليجار وندمائه على المؤيد، وانتهزوا فرصة واتتهم للإيقاع به؛ ذلك أن المؤيد زار أتباعه في مدينة الأهواز، فوجد مسجدًا قديمًا تهدَّمَتْ جدرانه فأمر شيعته بتجديده ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين، وطلب من نقبائه الأذان فيه «بحي على خير العمل» أذان الشيعة، وخطب يوم الجمعة باسم المستنصر الفاطمي، فجهر بالدعوة الفاطمية دون خشية، وأعلن عصيانه في بلد يدين للعباسيين، مما جعل قاضي الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد ينعي الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد في الدين، كما ثار أهل السنة على أبي كاليجار، وجاء الوزير العباسي ابن المسلمة موفدًا من قِبَل العباسيين للقبض على المؤيد، وكان أبو كاليجار إذ ذاك يرنو إلى ملك بغداد، فكان بين عاملين: إما ضياع هذه الفرصة من يده في سبيل رعاية ذمة المؤيد، وإما أن يضحي بالمؤيد في سبيل أطماعه.

وأدرك المؤيد تردد أبي كاليجار في هذا الأمر، ولا سيما بعد أن قطع السلطان مجالسه الليلية مع المؤيد، ورغبته عن لقائه، فلم يجد المؤيد بدًّا من النزوح عن وطنه، فسار مختفيًا متجنبًا الطرق العامة، سالكًا البراري والقفار حتى وصل إلى مصر سنة ٤٣٧هـ. جاء مصر يحدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاه وسلطان وتوقير؛ لأنه خدم دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله، وقام بأمرها حق قيام، ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد إمامه المستنصر؛ بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها، أمثال التستري واليازوري وغيرهما، يصرح المؤيد بذلك في سيرته بقوله:

«بلغت بشق النفس الباب الطاهر، مترجحًا بين أمل ويأس، ومتعقبًا لملتقى ما يلقاني من طرفي إيحاش وإيناس؛ فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيري، حداني حاديها، وناداني بالأهل والمرحب مناديها. وأمَّا اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب، ووجه نهار تبرقع بالسحاب، وأن المسافة لعلها تقذفني من الإضاعة في يمٍّ، وتئويني من حيث أرادت غنمًا إلى غرم... أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة - عمَّرها الله تعالى- فاستلمت على جاري العادة في مثله الأبواب، ولمحت الثريا ترابًا تحت قدمي إذ ترشفت ذاك التراب، وأجلسوني هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التي ملأت جوانحي، لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي، ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحي رحمه الله، فرأيت شيخًا عليه من الوقار مسحة، ومن الإنسانية سمة، فأدنى وقرَّب، وأكرمَ ورحَّبَ، وخرجت فأخذوني إلى دويرة كانت فُرِشت لي، هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال؛ لا بالإكثار ولا بالإقلال ...»[1].

وهكذا استقر بمصر، واتصل برجالها، وحضر مجالس الدعوة فيها، ولكن الوشايات لم تنقطع عنه، والدسائس تحاك حبالها حوله، فكان يقربه الوزراء حينًا ويبعدونه حينًا آخر، فعاش في مصر بين الرضى والغضب، وكثيرًا ما فكر في الرحيل عن مصر، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل، وكان يأمل أن يولى مرتبة داعي الدعاة، ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الإمساك بها، وأخيرًا عيَّنَه الوزير اليازوري رئيسًا لديوان الإنشاء، وزاد في معاشه، فتحسنت حاله، فظل في هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرلبك التركماني لامتلاك بغداد، وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه؛ وإذ أدرك أن التركمانية خطر على الدولة الفاطمية، وأنه إذا تمَّ أمر بغداد لطغرلبك فإنه لا ينثني عن محاربة أملاك الفاطميين في

(١) «السيرة المؤيدية»، طبع شركة الكاتب المصري.

بلاد الشام وأعالي الجزيرة، فأسرع المؤيد في درء هذا الخطر عن أملاك إمامه، فكاتب رجال طغرلبك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية، كما راسَلَ البساسيري وغيره من رجال العباسيين الذين يحقدون على التركمانية، ويخشون تملكهم للبلاد، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوَموا طغرلبك.

أمَّا البساسيري ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين، على حين لم يستجب رجال طغرلبك. فأيقن المؤيد أن الحرب لا شك ناشبة بين الفاطميين والتركمانية، فنشط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغرلبك، ووجدت دعوته قبولًا منهم، وأعدَّتْ مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال، وأنفقت الدولة على هذه الحملة أموالًا ذكرها المؤرخون في كتبهم، وهي الأموال التي أدت إلى ضعف مصر اقتصاديًّا، وجرَّتها إلى ما عُرف بالشدة العظمى، وطُلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري، فاعتذر المؤيد، ولكن المستنصر الفاطمي أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب، فلم يسع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه، وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمعن في الإباء.

وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة، حياة الرجل العسكري وحياة السياسي الداهية، فقد خرج من مصر وليس معه جندي واحد، وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربي، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد مَن يشاء، ويغريهم جميعًا بالأموال والألقاب من قِبَل الفاطميين، فإذا كانت إنجلترا تعترف لأحد أبنائها وهو «لورنس» بخدماته في تأليب العرب على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطولته، فكيف ينسى المصريون المؤيد في الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين، بل ما أدَّاه من نشر الدعوة الفاطمية في بلاد لم تُذكر الدعوة فيها من قبل، وفي إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة

وسلطانها. لقد وصف لنا المؤيد في سيرته حركاته ومكانته مع أمراء العرب، وكيف استمالهم جميعًا للنهوض معه في حرب التركمانية ومساعدته في طردهم من العراق، حتى تكاثرَ الأنصار حوله، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحلب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن ينتصر على طغرلبك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن حيوس في قصيدته منها:

عجبت لمدعي الآفاق ملكًا وغايته ببغداد الركود

وبهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر، ولكن جموعه كانت تضم نفوسًا متباغضة متشاحنة، فسرعان ما دبَّ بينها النفور، وحلَّ الشقاق، وتفرَّق عنه أكثر الأمراء حسدًا منهم لمن قربهم المؤيد إليه، ووصف المؤيد حالهم بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهارش. وكان يحاول تهدئتهم وإصلاح ما بينهم فلم يُوفَّق، وعلم طغرلبك بحالهم فأسرع إليهم وهزمهم، وكان المؤيد إذ ذاك في الرحبة، فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يحث مَن تفرقوا عنه إلى الرجوع إليه ويعدهم ويمنيهم، ولكنها كانت صيحة في وادٍ، وخشي أن يدركه العدو وهو حي، فآثرَ أن ينسحب إلى حلب واتخذها مقرًّا لقيادته، وكانت حلب في يد المرداسيين الذين قطعوا خطبة الفاطميين، فما زال المؤيد بهم حتى سلموا بلدهم إلى الوالي الذي أرسله المستنصر الفاطمي.

وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بإبراهيم بن ينال، وأغراه أن يخالف طغرلبك، ووعده بالتلقيب والخلع الفاطمية، فكانت مؤامرة ناجحة؛ إذ انفصل إبراهيم بن ينال عن جيوش طغرلبك وخرج هذا لمحاربته، فانتهز المؤيد هذه الفرصة، وأمر البساسيري بالمسير إلى بغداد، فتمَّ له ذلك سنة ٤٥٠هـ، ودعا على منابرها باسم المستنصر الفاطمي لمدة عام، ولو كان وزراء مصر استمعوا لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الإسلامي، ولكانت هذه

الحركة سببًا في محو الخلافة العباسية منذ دخلت جيوش البساسيري بغداد سنة ٤٥٠هـ، ولكن المؤيد عاد إلى مصر دون أن يحفل به أحد، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم يُنفَخ فيها بوق واحد، ولم يُقرع فيها طبل واحد، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير في مصر إذ ذاك هو الوزير المغربي الذي لم يَنْسَ ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه، وهكذا أضاع وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التي هيأها لهم المؤيد بدهائه وسياسته.

عاد المؤيد إلى مصر فولي مرتبة داعي الدعاة، وبذلك أصبح في المرتبة التي شقي بالتطلع إليها ردحًا طويلًا من الزمان، ولكنه لم يمكث في تلك المرتبة طويلًا؛ إذ خشي الوزراء مكانته ونفوذه وسلطانه فنُفِي مرة من مصر، ثم أُعيد إليها وولي مرتبة الدعوة، ثم عُزل عنها وولي ديوان الإنشاء مرة ثانية، وهكذا عاش حتى توفي سنة ٤٧٠هـ بالقاهرة، ودُفن في دار العلم بجوار القصر، وصلى عليه الإمام المستنصر نفسه.

كان المؤيد في الدين من أكبر علماء عصره، وتدلنا كتبه التي وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملمًّا إلمامًا تامًّا بجميع العلوم التي عُرفت في العالم الإسلامي إذ ذاك، قوي الحجة في مناظراته وجداله مع مخالفيه، وقد صدق أبو العلاء المعري حين وصفه بقوله: «وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين، ما زالت حجته باهرة ودولته عالية ... ولو ناظرَ أرسطاليس لجاز أن يفحمه، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه»[1]. ويكفي أن ننظر إلى مناظرات المؤيد مع المعري لندرك كيف كان شيخ المعرة يتهرب من هذه المناظرة، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه، فاعترف له بالتفوق في الجدل، وأنه ورث علم الأولين.

(١) انظر: الرسالة الثانية من الرسائل التي دارت بين المؤيد في الدين وأبي العلاء المعري، في معجم الأدباء: ج٣ ص٢٠٢، طبعة دار المأمون.

وضع المؤيد في الدين عدة كتب أهمها:

(١) المجالس المؤيدية: وهو أكبر كتاب وصل إلينا في الدعوة الفاطمية؛ إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التي كان يلقيها المؤيد، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد، ويُعدُّ هذا الكتاب من أقوى الكتب عند طائفة البهرة، ولا يقربه إلا مَن بلغ مرتبة خاصة من مراتب دعوتهم. وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدي الداعي اليمني هذا الكتاب، وقسَّمه إلى أبواب حسب موضوعاته، وسمى الكتاب «جامع الحقائق»، وإذا نظرنا في كتب الدعوة لدعاة اليمن، نرى أن جميع الدعاة كانوا يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها. ونرجو أن نُوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم، فهو موسوعة في علوم الدعوة الفاطمية، وفي هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد وردَّه على المخالفين.

(٢) ديوان المؤيد في الدين: كان المؤيد شاعرًا كما كان أديبًا وعالمًا، وقد وصل إلينا ديوانه، فإذا به مجموعة من قصائده التي أنشدها في مدح الأئمة، وفي هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد، ووصف أحواله، وإشارات إلى جهوده، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها. وطُبع هذا الديوان بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين.

(٣) السيرة المؤيدية: ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخي يفصِّل لنا الحياة السياسية والاجتماعية في فارس والعراق ومصر، في المدة من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠، كما يُعد سجلًّا للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التي عُرفت في التاريخ باسم ثورة البساسيري، وكذلك لم أجد كتابًا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة ما تحدث عنها المؤيد، ولا غرو في ذلك؛ إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومدبرها

والمشرف عليها. وقد طُبع هذا الكتاب بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين.

وللمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد، وكتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير، وكتاب الابتداء والانتهاء، وكتاب تأويل الأرواح، وكتاب نهج العبادة، وكتاب المسألة والجواب، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان، وهو تأويل قصص الأنبياء.

ويُعتبر المؤيد أستاذ الدعوة في اليمن والهند، فعنه أخذ القاضي لمك بن مالك علوم الدعوة، وعاد إلى اليمن يلقي على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد. كما يُعدُّ أستاذ ناصر خسرو الشاعر الفارسي المعروف، فقد ذكره ناصر في أشعاره، ووصف مجالسه، وهكذا كان للمؤيد أثر في الحياة السياسية والعقلية والأدبية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الثاني
في الحياة العلمية

يُعَدُّ عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية، فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار؛ لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها، وكثرة المؤلفات في كل فنٍّ من فنون العلم.

وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء، ويشجعون الطلاب، وأنهم أوقفوا أرزاقًا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أَهَّلُوا أنفسهم له، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء أسبق مما عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قَدْرهم، ولم توفِّهم حقهم، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولًا، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول. وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع إمامه المعز يقول: «إنَّا لَنُسَرُّ بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير، كما نُسرُّ بذلك في الولد»[1]. ففي ظل هؤلاء الأئمة، وعلى ضوء ما ذكره الإمام المعز، وجد العلماء ملاذًا يئويهم من العوز، ويحميهم من الفاقة، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف.

ويذكر المؤرخون عددًا من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية، ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير، فيحدِّثنا ابن أبي

(١) المجالس والمسايرات (ورقة ٤٦ أ).

أصيبعة أنه لما وصل المهذب بن النقاش -وكان فاضلًا في صناعة الطب- إلى الشام من بغداد، أقام بدمشق مدة، ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته، وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى مَن يقصدهم ولا سيما من أرباب العلم والفضل، فتوجه إلى مصر واتصل بالقاضي الأجل السديد أبي المنصور عبد الله ابن الشيخ السديد أبي الحسن علي، فوهب له الأموال وأقام في مصر مكرمًا[١]. ونردد ما ذكره المؤرخون عن القاضي عبد الوهاب بن علي أحد فقهاء المالكية المجتهدين في المذهب، حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد: «لم أَرَ في المالكية أفقه منه». إذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد، وأكرمه المصريون على الرغم من تمذهبه بمذهبٍ يخالف ما هم عليه، حتى تمول وحسنت حاله جدًّا، ولكن أدركه المرض، وكان يقول وهو في مرضه: «لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا!». وتوفي بمصر سنة ٤٢٢هـ، وسنذكر غير هذين العالمين في الفصول التالية.

فالقاهرة المعزية أصبحت مطمع أنظار العلماء، ومحط رحال الطلاب، وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخري، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر، ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها، وأقرب مثل نقدمه لذلك هو الإمام الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه: «القسطاس»، و«المنقذ من الضلال»، و«المستظهري» أو «الرد على الباطنية» وغيرها من كتبه؛ ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته، ووضع كتابه «مشكاة الأنوار» متأثرًا ببعض العقائد الفاطمية، ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول.

(١) ابن أبي أصيبعة: ج٢، ص١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢).

ويُخيل إليَّ أن السبب الذي من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر في العالم الإسلامي، واستطاع الفاطميون أن يكوِّنوا دولتهم العتيدة، فعقيدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم؛ فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن، وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول؛ فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجِّعون العلم الذي هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية.

وقد أثَّرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلمائها على نحو ما رأيناه في الباب السابق من هذا الكتاب، فكان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية؛ إما لإدخال بعض العناصر منها في عقيدتهم وآرائهم، وإما للرد عليها وتهجين هذه الآراء القديمة، فَعَلَ ذلك الفاطميون في الوقت الذي كان فيه أهل السنة في البلاد الأخرى يرمون مَن يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد. فالفكر اليوناني وَجَدَ ترحيبًا من الفاطميين، وتوسعوا في دراسته، وقد لاحظَ المستشرق أوليري ذلك فقال: «إنَّ الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكانتها في جو مشبع بالفكر الهليني، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية»[١].

وسنرى في الفصل التالي مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية، واصطناعهم لكل من عُرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة، فقد قيل: إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع، واستدعاه إلى مصر فاعتذر[٢]، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب، وكتب الوزير الفلاحي

(١) o Leary: Hist of the Fatimid khalfitleP. ١٤٠ (London ١٩٢٣).

(٢) أخبار الحكماء للقفطي: ص١٠٥.

إلى والي حلب وأعمالها بحمل أبي العلاء المعري إلى مصر ليبني له دار علم يكون متقدمًا فيها، وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده، وإن والي حلب سار إلى معرة النعمان، واجتمع بأبي العلاء، وقرأ السجل عليه فاستسمهله، وكتب إلى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك فأعفاه. وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية، فأبو الفتح منصور بن مقشر كان طبيبًا للعزيز والحاكم بأمر الله، ومن المقربين إليهما، وبعد وفاته استطَبَّ الحاكمُ إسحاقَ بن إبراهيم بن نسطاس، وهما من أهل الذمة، ولكن الفاطميين أغدقوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخلع والألقاب، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم.

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية، يناقسون ويجادلون أصحاب الذاهب الأخرى، ورأينا كيف التفَّ عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة، وأخذوا عنهم علوم الدعوة، فنستطيع إذن أن ندرك في سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر في مصر فحسب، بل أثرت في جميع البلاد الإسلامية، وتبع ذلك أن الآراء اليونانية وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية، وهي التي صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية، قد انتشرت في العالم الإسلامي على أيدي دعاة الفاطميين.

وإذا درسنا الحياة العقلية في العالم الإسلامي في القرن الرابع وما بعده، رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه الآراء التي بثَّها دعاة الفاطميين، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة، فابن حوقل كان متشيعًا لهم حتى قيل إنه من دعاتهم، والفارابي مثلًا في حديثه عن القلم واللوح يكاد

يتحدث بلسان دعاة الفاطميين، ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد[١]، وابن سينا قيل: إنه إسماعيلي المذهب، وأن أباه كان أحد دعاتهم فنشأ متأثرًا بعقائدهم، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم ازدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع، ومنهم مَن اعتنق الدعوة الفاطمية، وكان يراسل الخليفة الفاطمي، وظهرت في رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم. وابن الهيثم كان متصلًا بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كنفه، وأبو العلاء المعري حكيم المعرة كان متأثرًا تأثرًا تامًّا بهذه الآراء التي كانت تحيط به، فقد امتد ظلُّ الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام، وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم، فترى في أشعار أبي العلاء وكتابته كثيرًا من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرماني فيلسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرامان، وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل، وكتاب المصابيح، وكتاب الهادي والمستهدي، وكتاب الأقوال الذهبية وغيرها التي تدل على أن الكرماني فيلسوف ناضج التفكير، وأنه متأثر بما أخذه من فلسفة اليونان وغيرها[٢]. ونذكر المؤيد في الدين، فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها، وهكذا نستطيع أن نتتبع كثيرًا من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية، وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة.

ولم يَنْسَ الفاطميون العلوم العربية الخالصة؛ بل وجهوا إليها اهتمامًا ملحوظًا وعناية خاصة، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب

(١) راجع ما ذكرناه في كتاب «راحة العقل في المقارنة بين رأي الكرماني ورأي الفارابي».
(٢) راجع كتاب «راحة العقل» (من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند).

للمناظرة بين يديه، ورأينا أثر يعقوب بن كلس في نشاط الحركة العلمية والأدبية، ويحدثنا عمارة اليمني أن مجالس الوزير الصالح بن رزيك لم تكن تنقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته(١)؛ فكانت هذه العناية الخاصة التي وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سببًا في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية، وفي أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف الفنون والعلوم.

حقيقة كان علماء مصر في ذلك العصر يشرحون أو ينقدون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم في هذه العلوم العربية، ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقوهم، ولكن ليس ذلك بغريب؛ فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذا تمَّ تكوينها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصرة لشرح هذه القواعد أو نقدها، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة، بل يفرِّعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم. هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة، وهذا ما حدث أيضًا للمسلمين في جميع الأقطار الإسلامية بعد أن وُضعت قواعد اللغة، ودُوِّن الأدب العربي بألوانه وفنونه، وبعد أن صِيغَت القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم، مرت بهم مصر الفاطمية، بل مرت بها جميع الأقطار الإسلامية، بل أستطيع أن أقول: إننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن؛ فقواعد اللغة التي دونها سيبويه، وأصول الصرف كما تركه ابن جني، وعروض الخليل بن أحمد، وأصول الفقه كما دوَّنه الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن

(١) النكت العصرية: ص٤٨.

حنبل، وهي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن، على الرغم من أن عددًا كبيرًا من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه.

فعلى الرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التي تحتاج إلى مجلد ضخم لسرد أسمائها، وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمي للعصور التي تلت عصر الفاطميين؛ فإن هذه الكتب الكثيرة -ولا سيما ما كان منها في العلوم العربية- لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر، إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التي تحدثت عن مصر. ففي هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يتأثروا بما حولهم، وأن يُظهروا شيئًا مصريًّا لا يستطيع غير المصريين أن يأتوا به.

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر في كتب العلماء المصريين في العلوم العربية، ذلك هو رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلبًا للعلم، فمصر بموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزًا وسطًا بين الشرق والغرب، وطريق الغرب إلى الأراضي المقدسة، هذا الموقع الجغرافي جعل مصر مركزًا هامًّا لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية؛ فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التعريج على مصر في رحيلهم لتأدية فريضة الحج، أو في رحيلهم لطلب العلم في العراق وفارس، وتطول مدة إقامتهم في مصر أو تقصر يأخذون عن علماء مصر، أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم؛ فتتلاقح الآراء وتمتزج وتصبح متشابهة، لافرق بين أندلسي ومصري ومغربي وصقلي، ولا تظهر الشخصية الإقليمية في هذا النحو من العلم، وكذلك نقول عن علماء مصر الذين رحلوا في طلب العلم من الأقطار الأخرى، وعلماء الأقطار الأخرى الذين رحلوا في طلب العلم أو للتعليم في مصر، فهذه الرحلات الكثيرة كانت سببًا في ألا تتمايز العلوم بتمايز الأقطار،

حتى أصبحنا لا نفرِّق بين كتب المشارقة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم. أما من الناحية الموضعية للكتب، فمن الصعب العسير أن نصل إلى نتيجة يطمئن إليها الباحث، والأقطار العربية التي كانت تتنازع فيما بينها في السياسة والمذهب الديني، وتنشب فيها الحروب المختلفة، كانت تربطها وتوحدها هذه الحياة العلمية، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علومًا واحدة لا فرق بين قطر وقطر، ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخالصة والعلوم الإسلامية، وأملنا عظيم اليوم -وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية- أن تتم وحدتها في مختلف ألوان الثقافة، حتى يعود للعرب مجدهم القديم بهذه الوحدة التي لن تنفصم بعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية.

obeikandl.com

الفصل الأول
العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى، والتي تضمها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق، إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألمَّ بها جميعًا. وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلهيات من الطبيعيات، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين مَن أتقن هذه العلوم وبرز فيها، ولا سيما رصد الكواكب، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزيز والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث. ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب، ويروي المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، كما يروون بعض الأشعار كان يتهكم بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب؛ من ذلك ما رُوي أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم، فرأى رقعة كُتِب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنتَ أعطيت عِلْم غيب ... فقلْ لنا كاتب البطاقة

وتضيف الرواية أن العزيز بالله أقلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك. ويروي ابن ميسر في تاريخه أن النيل زاد، وبلغ الماء البابَ الجديدَ أول الشارع خارج القاهرة، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والانقطاع، فدخل إليه بعض

خواصه، وسأله عن السبب، فأخرج له كتابًا، فإذا فيه: إذا وصل الماء الباب الجديد انتقلَ الإمام عبد المجيد. ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا، وأحوال دولتنا، وما يأتي بعدها(١). فإن صَحَّتْ هذه الرواية فهي تؤيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب، وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وبين يدي الآن كتاب: «الفترات والقرانات» المنسوب إلى جعفر بن منصور اليمن من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري -ولكني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه- يتحدَّث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد، ويتنبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة، وذهب مؤلفه إلى أن علم القرانات أو علم الجفر علم خصَّ الله سبحانه به آدم عليه السلام وورثه آدم وصيه شيث، وتداولته الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والنقباء المتوحدين بالتأييد(٢).

ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول: «لو ثنيت لي وسادة وجلست عليها، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجليهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، ولولا أن يقال إن ابن أبي طالب ساحر، لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، مما علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٣). فهذا كله يؤيد ما قيل عن الفاطميين أنهم كانوا يدَّعون الغيب، وأنهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب، ولكن بجانب هذه النصوص التي تثبت ذلك، نجد نصوصًا أخرى تثبت عكسها، فالقاضي النعمان يحدثنا في كتابه المجالس والمسايرات: «ذكر الإمام المعز لدين الله يومًا، وأنا بين يديه، النجامة والمنجمين، فقال: مَن نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار، وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره،

(١) أخبار مصر لابن ميسر، حوادث سنة ٥٤٣هـ، والمقريزي: ج١ ص٩٧.

(٢) كتاب «الفترات والقرانات»: ورقة ٢، (نسخة بمكتبتي الخاصة).

(٣) المجالس المؤيدية، والفترات والقرانات: ص٥٧، والسيرة المؤيدية في القصيدة المسمطة.

وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له؛ فقد أحسن وأصاب، ومَن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون، فقد أساء وأخطأ. ولقد كان المنصور بالله من أعلم الناس بها، ولقد قال لي غير مرة: والله ما نظرت فيها إلا طلبًا لعلم توحيد الله وتأثير قدرته وعجائب خلقه، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها، فما عملت في شيء من ذلك باختبار مني دلائل النجوم، ولا التفتُ إليه». ثم قال المعز: أتاني بعض المنجمين بكتاب ألفه يذكر فيه خلق آدم، وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل، وما دلَّتْ عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه، ورأى أنه أتى في ذلك إليَّ بفائدة وعلم سبق إليه، فلما وقفت على كتابه سألته: هل كان قبل آدم شيء؟ قال: نعم، قد كان قبله. ومَن كان؟ وكيف كانت هذه الكواكب قبل ذلك، وما دلت عليه قبل خلق آدم؟ فلم يُحر جوابًا، وقال: هذا شيء ما ظننت أني أسأل عنه. قلت: وهذا الذي تكلفته وجئت به ما سئلت عنه أيضًا فكيف تكلفته؛ فعجبت من قوم ينتهون فيما لا يعلمون ويتعاطون ما لا يدرون[1]. فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعيا الغيب، ولم يدرسا الكواكب وحركاتها لعلم ما كان وما سيكون. ويقول جعفر بن منصور اليمن في كتابه الكشف: «قال الله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَك﴾، وهذا قول نوح عليه السلام الذي ذكر الله في كتابه عنه، وكل هذا دليل على أن الأئمة والرسل لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأييده ونوره وتثبته عن الله جلَّ ذكره»[2]. فهذا دليل آخر نقدِّمه في دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب.

وقال القاضي النعمان في كتابه الهمة: «فإنا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون، الصادون عن أولياء الله، الدافعون إمامتهم، الزاعمون أنهم يعلمون

(١) المجالس والمسايرات: ورقة ٩٢ب.

(٢) كتاب الكشف، لجعفر بن منصور اليمن، (نسخة خطية بمكتبتي).

غيب الله، وما تخفي صدور عباده، تعالى الله الذي تفرَّد بعلم ذلك دون خلقه، ولم يطلع على ما شاء منه إلا مَن ارتضى من رُسُله، وإنما أراد هؤلاء الفَسَقَة بما نسبوه إلى الأئمة -صلوات الله عليهم من ذلك- دفع إمامتهم؛ لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب، والناس يرونهم لا يعلمون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لهم، لم يكونوا أئمة عند أولئك الفسقة، ولا عند مَن قبل منهم؛ إذ لم تكن تلك الصفة التي وصفوهم بها منهم»[1]. ولعل سبب هذا الادعاء هو تطرُّف بعض الدعاة في إسباغ جميع الفضائل على الأئمة، حتى جعلوا أئمتهم يعلمون الغيب، وكان اختلاف الناس في هذا الأمر مصدر جدل بين المصريين، وصوَّر لنا الأمير تميم في إحدى قصائده ذلك كله، بقوله يخاطب أخاه الإمام العزيز بالله:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها ... وفي أنها بالنفع والضر قد تجري
فمن مؤمنٍ منا بها ومكذِّب ... ومن مكثرٍ فيها الجدال ولا يدري
ومن قائلٍ تجري بسعد وأنحس ... ونعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلَّمتنا تأويل ذلك كله ... بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلًا ... وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهنٌ ... بما قال والكهان من شيعة الكفر
وأن جميع الكافرين مصيرهم ... إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمَّعْتنا بعد اختلافٍ ومريةٍ ... وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قولَ حقٍّ مبرهن ... يجلي ظلامَ الشك عن كلِّ ذي فكر
فعدنا إلى أن الكواكبَ زينةٌ ... وفيها رجومٌ للشياطين إذ تسري
مسخرة مضطرة في بروجها ... تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميعَ الغيبِ لله وحده ... تباركَ من رب ومن صمدٍ وترِ

(١) كتاب «الهمة في آداب اتباع الأئمة»، طبعة دار الفكر العربي، ص٥٤.

وما علمت منه الأئمة إنما رَوَوه عن المختار جدهم الطهر[١]

وإذن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب؛ فإن هؤلاء المؤرخين استقوا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة، ولم يحققوا الأمر تحقيقًا علميًّا، فقصيدة الأمير تميم، وأقوال علماء الدعوة، تنفي ما جاء به المؤرخون، وتبرئ الفاطميين من ادعاء الغيب.

حقيقة اهتمَّ الفاطميون بالنجوم ورصدها، واستدعى الفاطميون إلى مصر عددًا كبيرًا من المنجمين، فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقي[٢]، ورفع العزيز بالله منزلة المنجم أبي عبد الله بن القلانسي إلى أن توفي سنة ٣٨٦[٣]، وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلًا يرصد فيه النجوم، وعمل له منجِّمه أبو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكمي في أربعة مجلدات، ويقول ابن خلكان عنه: إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول منه[٤]. ويقول القفطي: إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب[٥]. وهذا الزيج هو الذي سار عليه منجمو مصر بعده، ويذهب المقريزي إلى أنه عمل للأفضل بن بدر الجمالي مائة تقويم

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز: ورقة ٩٣ ب، (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة).

(٢) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد العتقي المنجم، كان متفننًا في عدة علوم، والغالب عليه علم النجوم، ولما وفد بمصر قربه الفاطميون، ولم يزل مقربًا إلى أيام العزيز بالله؛ ولكن حدث أن صنف كتابًا في التاريخ ذكر فيه بني أمية وبني العباس، وأشاد ببعض محاسنهم وجميل أفعالهم، وأَطْلَع عليه الوزير يعقوب بن كلس فأنهاه إلى العزيز؛ فوبخ العتقي على ذلك، وجمع الوزير العلماء إلى داره وذم العتقي أمامهم، فاضطر العتقي إلى أن يلزم داره، كما صُودِرَتْ أملاكه، وتوفي سنة ٣٨٥هـ، وله عدة تصانيف منها: كتب في النجوم وأحكامها، وكتاب التاريخ الجامع، صنَّفه إلى بعض أيام العزيز، وكتاب في النحو سماه «السبب لعلم العرب». (راجع أخبار الحكماء للقفطي، ص١٨٧).

(٣) القفطي: ص٢٦٧.

(٤) ابن خلكان: ج١، ص٣٧٥.

(٥) القفطي: ص١٥٥.

لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة، وكان منجمو الحضرة يؤمئذ: ابن الحلبي، وابن الهيثمي، وسهلون وغيرهم، يطلق لهم الجاري في كل شهر، والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة، فإذا كان في غرة السنة حمل كلٌّ منهم تقويمه، فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام، فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقاويم على العادة، جمع المنجمين والحساب وأهل العلم، وسألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم، فقالوا: الشامي يحسب ويعمل على رأي الزيج المهجور المأموني، ونحن نعمل على رأي الزيج الحاكمي لقرب عهده، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف. ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد، وأشار عليه أبو الحسن بن أبي أسامة أن يتولى ذلك القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس العالم، ولكن الأفضل غضب على ابن أبي العيش، وولى بدله أبا سعيد بن قرفة الطبيب، فنشط في إقامة المرصد، وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم إلى أن قُتِل الأفضل سنة ٥١٥هـ، وولي الوزارة المأمون البطائحي، فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يُعرف بالرصد المأموني المصحح، واستمر العمل إلى أن قُتِل الوزير البطائحي سنة ٥١٨هـ، فوقف العمل به.

وكان من المهندسين الذين اشتركوا في إقامة هذا المرصد: أبو جعفر بن حسنداي، والقاضي ابن أبي العيش، وأبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب، وأبو النجا بن سند الساعاتي الإسكندراني المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقلي وغيرهم. ومن الحساب والمنجمين: ابن الحلبي، وابن الهيثمي، وأبو النصر تلميذ سهلون، وابن دياب، والقلعي وغيرهم[١]. وكان الخليفة الحافظ مُغرمًا بعلم النجوم، وله عدة من المنجمين[٢]، ومما يدل على شدة عناية الفاطميين

(١) المقريزي: ج١، ص٢٠٦.
(٢) المقريزي: ج٢، ص٢٤٩.

بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدي، وكان من أهل الخبرة بعمل الإصطرلاب والحركات: أن الوزير الجرجرائي تقدم سنة ٤٣٥ فأمر بعمل فهرست لخزانة الكتب، وبرم ما أخلق من جلودها، وأنفذ القاضي القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك، وحضر ابن السنيدي ليشاهد ما يتعلق بصناعته، قال: «فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء، وكرة نحاس من عمل بطليموس، وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة، وزنها ثلاثة آلاف درهم، قد اشتريت بثلاثة آلاف دينار»[1]. من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللون من العلم، ولكن الفاطميين لم يكونوا بدعًا في ذلك كله، فهم ليسوا بأول مَن رصدوا النجوم، وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلي وتأثير حركات الكواكب في الأرض، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام وبعد الإسلام؛ ففي أوائل قيام الدولة العباسية عني أبو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم، وترجم له السندهند، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم، وجعلوا للمنجمين رواتب، واستشارهم الخلفاء في أحوالهم الإدارية والسياسية، وليس ببعيد عن أذاهننا قصة فتح عمورية، وقصيدة أبي تمام التي مطلعها:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

ويقول أستاذنا المرحوم كارلو نالينو: إنَّ التنجيم كان له شأن في قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة، وظل كذلك إلى القرن الماضي، فكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبر نيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم؛ بيد أنه لا يزال موجودًا في البلاد التي لم تصب من الحضارة الغربية إلا

(١) القفطي: ص٢٨٦.

قليلًا[١]. فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين في التنجيم والفلك، وقد يكون من أهم الأسباب التي أدت إلى اهتمامتهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يومًا دائمًا، ولم يبدءوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل رؤية استبصار، فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يومًا، وخمس يوم وسدس يوم، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة، وأن كل ناقص منها يتلوه تام، ولشدة الدقة في هذا التقويم اضطروا إلى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والزيجات.

ابن الهيثم:

ولعل أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الهيثم، وقيل: إنه أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، اتفق المؤرخون على أنه بصري المولد والنشأة، وإن كانوا لم يذكروا شيئًا عن حياته في شبابه، فإن هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض، والذي ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام، وعاش في كنف أمير من أمرائها، وأن الأمير أغدق عليه نعمه وعطاياه، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير: «يكفيني قوت يومي، وتكفيني جارية وخادم، فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي؟ فما قبل بعد ذلك إلا نفقة احتاج إليها ولباسًا متوسطًا»[٢]. فإن صحت هذه الرواية فهي تدلنا على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف إلى العلم ورغبة عن المال؛ وخوفا من أن يشغله المال عن العلم، وكان حريصًا على أن

(١) مادة تنجيم في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي: ص٥١، مخطوط بدار الكتب المصرية.

يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خُلُق وترفع عن طلب الماديات، وأين هم العلماء الآن الذين لا يسعون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم؟! وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجاتهم الضرورية، فإن علماء عصرنا -مع شديد الأسف- يتكالبون على جمع المال بشتى الطرق والوسائل، والحقد يملأ قلب أحدهم إذا أثرى له زميل، أو ارتفع قدره، ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من نطلق عليه لقب عالم يترك العلم والبحث للجري وراء اقتناء الدور والأراضي ويكنز الأموال؛ وهو في غنًى عن ذلك كله إن كان عالمًا حقًّا قانعًا قناعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق.

ويروي البيهقي قصة نذكرها الآن، لعلها تجد عند ساداتنا علماء عصرنا رادعًا لهم عما هم عليه، فهي تدل على أن ابن الهيثم لم يَأْبَه للمادة، ولم يطلب سوى العلم للعلم. وتقول القصة: إنَّ أميرًا جاء يطلب العلم عليه، فقال له ابن الهيثم: أطلب منك للتعليم أجرة، وهي مائة دينار في كل شهر؛ فبذل ذلك الأمير ما طلبه ابن الهيثم، وما قصَّر فيه، وأقام عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم، فلما عزم الأمير على الانصراف إلى دياره، قال له ابن الهيثم: خُذْ أموالك بأسرها فلا حاجة لي إليها، وأنت أحوج إليها مني عند عودتك إلى مقر ملكك، ومسقط رأسك، وإني قد جرَّبْتُك بهذه الأجرة، فلما علمتُ أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم، بذلت مجهودي في تعليمك وإرشادك، واعلم أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير. ثم ودَّعه وانصرف[1].

وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما في هذه الكلمة من معانٍ وأوصاف، وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله

(١) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام: ص٥١ وما بعدها، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

الفاطمي، وقيل: إنه نُقِل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال: لو كنتُ بمصر لعملت في نيلها عملًا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال وهو في طرف الإقليم المصري(١). فازداد الحاكم شوقًا إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه، وأرسل إليه يرغبه في الوفود إليه، فاستجاب ابن الهيثم إلى رغبته، وخرج الحاكم نفسه للقائه والترحيب به، وقرَّبه إليه وأكرمه، ثم طلب إليه الحاكم أن ينظر في أصول النيل عساه ينفذ ما خطر له وهو بالشام، فرحل ابن الهيثم في النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلي أسوان، ورأى في طريقه آثار قدماء المصريين، فعلم أنه لا يستطيع أن يأتي من الأعمال الهندسية ما لم يبلغ القدماء معرفته، فأظهر ابن الهيثم عجزه، وعاد إلى القاهرة معتذرًا إلى الحاكم(٢). وهذه خصلة أخرى نسجِّلها لهذا العالم العظيم الخلق الذي خطر له رأي، فلما كُلِّف بتنفيذه أَبَى عليه تواضعه العلمي إلا أن يعترف بعجزه أمام ما وجده من فن القدماء، ولو لم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لتمادى في مشروعه، ولكلف الدولة آلاف الدنانير، ولاستفاد هو أيضًا، إن كان على نمط علماء عصرنا، فما أحرانا وقد مضى نحو ألف عام على وفاة ابن الهيثم أن نتمثل به في قناعته وتواضعه وعلمه.

وكان من المتوقع أن يغضب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم، ولكن الإمام الحاكم حفظ له مكانته وعرف قدر خلقه وعلمه، فولاه بعض الدواوين، وقبل ابن الهيثم العمل رهبة لا رغبة، ثم خاف بطش الحاكم بعماله وتقلباته مع من حوله، فنزوات الحاكم وتسرعه في إراقه الدماء أو التعذيب أمر عُرف به هذا الإمام، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يتصنع الجنون والخبال، فتركه الحاكم في منزله، وجعل له من يخدمه ويقوم بمصالحه(٣). فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة

(١) القفطي: ص١١٤.

(٢) القفطي: ص١١٥.

(٣) القفطي: ص١١٥، وابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٩٠.

الحاكم سنة ٤١١، فاطمأن من نزواته على نفسه، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، وأقام بها متنسكًا، واشتغل بالتصنيف والتعليم ونَسْخ الكتب القديمة، فكان يتعيش من نسخ ثلاثة كتب كل سنة هي: إقليدس والمتوسطات والمجسطي، ويبيعها بمائة وخمسين دينارًا هي مئونته لسنة[١]، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة.

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالمًا متقنًا لعلوم كثيرة، فيقول القفطي عنه: «ابن الهيثم صاحب التصانيف والتآليف المذكورة في علم الهندسة، كان عالمًا بهذا الشأن متقنًا له، متفننًا فيه، قيمًا بغوامضه ومعانيه، مشاركًا في علوم الأوائل، أخذ عنه الناس واستفادوا منه»[٢]. ويقول البيهقي: «الحكيم بطليموس الثاني أبو علي بن الهيثم، كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تُحصَى»[٣]. ويذهب ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كان متفننًا في العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه[٤]. ويقول المستشرق دي بور: نجد في القاهرة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس من الهجرة) رجلًا من أعظم الرياضيين والطبيعيين في العصور الوسطى، هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم[٥]. وسرد القفطي أسماء سبعة وستين كتابًا من تأليف ابن الهيثم، أما ابن أبي أصيبعة فذكر له ما يقرب من مائتي كتاب، خلا رسائل كثيرة، فقد ألَّف ابن الهيثم في الهندسة والطبيعيات والفلك والحساب والجبر، وفي الطب والمنطق

(١) القفطي: ص١١٥، وابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٩٠.
(٢) القفطي: ص١١٤.
(٣) تاريخ حكماء الإسلام: ص٥١.
(٤) ابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٩.
(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ص١٩٠، ترجمة الدكتور أبو ربدة.

والأخلاق، فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الثروة العلمية التي خلَّفها ابن الهيثم، ونوَّهوا بمكانته في هذه الفنون التي نبغ فيها وعرض لها في مصنفاته، فالأستاذ مصطفى نظيف «بك» قال: «إنَّ ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة، وأنشأ علمًا جديدًا، هو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالأصول التي نراها الآن، وإنْ عُدَّ نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فابن الهيثم خليق بأن يُعدَّ بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد»(١).

وقال الأستاذ محمد رضا مدور «بك»: «إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر، فلا أكون مُغاليًا إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبةٍ تضاهي مرتبة العلامة أنيشتين في عصرنا هذا»(٢).

ويقول الأستاذ الدكتور مشرفة «باشا»: «المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك إقليدس، يلمس فيه دقة المؤلف في التفكير، وتعمقه في البحث، واستقلاله في الحكم، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الإقليدسية من العلوم الرياضية، على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات. فابن الهيثم في هذا الكتاب رياضي بحت بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى، وأبلغ ما يصل إليه من حدود»(٣). فهذا كله قول مختصين يستطيعون الحكم على مكانة ابن الهيثم في العلوم الرياضية والطبيعية،

(١) الاجتماع التخليدي لذكرى ابن الهيثم: ج٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص٣١.
(٣) المصدر السابق: ص٤.

ولكن ابن الهيثم كان في مصر الفاطمية، فوجدتْ تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها، بسبب تعصب مَن أتى بعد الفاطميين، وقد لاحظ الأستاذ «ديبور» إهمال العلماء له، فقال: إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة في الشرق، ولا يُعرف من تلاميذ غير واحد يُعدُّ من الفلاسفة هو «أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد»(١). ولكني أرى خلاف ما رآه ديبور؛ فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته، ولكن كما قلت كان التعصب الديني عند الأيوبيين والعباسيين قويًّا، حتى أنهم لم يفرِّقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية، فكلُّ مَن اتصل بالفاطميين فهو من زمرتهم، وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين، ويجب أن تُحرق كتبه، ولا تُتَّبَع تعاليمه. هذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء.

أمَّا مبشر بن فاتك الذي ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم، فهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك، وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها، دائم الاشتغال، محبًّا للفضائل والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والانتفاع بما يقتبسه من جهتهم، وكان ممن اجتمع به منهم، وأخذ عنه كثيرًا من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو علي محمد بن الهيثم(٢). ويقول أمية بن أبي الصلت: إنه أدرك أبا الوفاء، وأخذ عنه شيئًا من المنطق، وتخصص به، وتميز عن أضرابه، وأنَّ أبا الوفاء أدرك «كثير بن الزقان» تلميذ أبي الحسن علي بن رضوان، وقرأ بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق، وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية، وشرح بزعمه وفسَّر ولخَّصَ(٣).

(١) تاريخ الفلسفة: ص١٩٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة: ج٢، ص٩٨.

(٣) الرسالة المصرية: ص٧٧، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

وكان أبو الوفاء أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ، وكان في أيام الظاهر والمستنصر، وله كتاب «سيرة المستنصر» في ثلاثة مجلدات، وله تواليف في علوم الأوائل، كما كان حريصًا على اقتناء الكتب، فجمع منها ما لا يُحصى عدده كثرة[١]. ويقول: القفطي: إنه قرأ على المبشر فضلاء زمانه فسادوا[٢]، ويذكر من تلاميذه الطبيب سلامة بن رحمون اليهودي الذي ناظرَ أمية بن أبي الصلت[٣].

ومن الرياضيين الذين كانوا في هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذي وصفه أمية بقوله: «وله في فروع النجامة بعض دربة، وبتجرباتها بعض خبرة، وهو شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم الذي علمهم السحر، فجميعهم إليه منسوب، وفي جريدته مكتوب، وبفضله معترف»[٤]. وأبو علي المهندس المصري الذي كان قيمًا بعلم الهندسة، وكان يعيش في أوائل القرن السادس الهجري، وكان مع ذلك أديبًا شاعرًا، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية، فهو يقول مثلًا:

تقسم قلبي في محبة معشر ... بكلِّ فتى منهم هواي منوط
كأن فؤادي مركز وهُمْ له ... محيطٌ وأهوائي لديه خطوط[٥]

وقوله أيضًا:

إقليدس العلم الذي يحوي به ... ما في السماء معًا وفي الآفاق
تزكو فوائده على إنفاقه ... يا حبذا زاكٍ على الإنفاق

(١) معجم الأدباء: ج١٧ من ٧٧ (طبعة رفاعي).
(٢) القفطي: ص١٧٦.
(٣) القفطي: ص١٤٢، وابن أبي أصيبعة: ج٢، ص١٠٦.
(٤) القفطي: ص١٢٧.
(٥) القفطي: ص٢٦٧.

هــو ســلم وكــأنما أشــكاله درج الى العليــاء للطــراق
ترقــى بــه الــنفس الــشريفة مرتقــى أَكْــرِم بــذاك المرتقــى والراقــي(١)

وظهر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء، والطب كما نعلم كان في ذلك العصر من علوم الفلسفة، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفقه وكثرة التأليف حوله، وقرَّب الفاطميون الأطباء، وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوا لهم من مرتبات شهرية؛ فمن ذلك ما يُروى أن منصور بن مقشر النصراني طبيب العزيز بالله اعتلَّ سنة ٣٨٥هـ، وتأخر عن الركوب مع الإمام، فلما تماثل من علَّته كتب إليه العزيز رقعة بخطه، نسختها:

بسم الله الرحمن الرحيم

طبيبنا سلمه الله

سلم الله الطبيب وأتم النعمة عليه، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبُرْئه، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة في جسمنا، فتمم الله عليك النعمة، وكمل لنا صحتك وعجَّل بها، ولا أشمت بنا فيك عدوًّا ولا حاسدًا، ورد كيد من يريد الكيد في نحره، وابتلاه مما لا طاقة له، بعد الكفاية فيك، وإقالتك العثرة، ورجوعك إلى أفضل ما عودك.

وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسليمًا(٢).

فمثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير، فما بالك إذا صدرت من إمام مسلم إلى طبيبه المسيحي، فالإمام عرف لطبيبه قدرته في فنه وعلو كعبه في صناعته، فقربه واتخذه صديقًا. وكذلك يقال:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ص٢١٩.

إن المعز لدين الله اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار، وكان طبيبًا عالمًا بتركيب الأدوية وطبائع المفردات، وهو الذي ألف شراب الأصول[١].

ووفد على مصر في عهد المعز والعزيز الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، وهو من بيت المقدس، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الأدوية، ولقي الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في صحبة المعز، والمقيمين بمصر من أهلها. ويقول القفطي: إنه كان منصفًا في مذكراته، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة، وصنَّف للوزير يعقوب بن كلس كتابًا كبيرًا في عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء». وتوفي التميمي بمصر في حدود سنة ٣٧٠هـ[٢].

ومن أشهر الأطباء في هذا العصر سلامة بن رحمون أبو الخير اليهودي المصري، الذي قال عنه أمية بن أبي الصلت: «وأنبه مَن رأيته من أطباء مصر، وأدخلهم في عداد الأطباء؛ رجل من اليهود يُدعى أبا الخير سلامة بن رحمون، فإنه لقي أبا الوفاء المبشر بن فاتك، وأخذ عنه شيئًا من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه، وأدرك الكثير الزقاني تلميذ أبي الحسن بن رضوان، وقرأ عليه بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعًا، وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية، وشرح بزعمه وفسر ولخص، ولم يكن هنالك في تحصيله وتحقيقه، بل كان يكثر كلامه فيضل، ويسرع جوابه فيزل»[٣].

(١) القفطي: ص٢١٠.
(٢) القفطي: ص٧٤، ٧٥.
(٣) القفطي: ص١٤٢.

وناظَرَه أمية، ولكن إجابات سلامة لم تجد منه قبولًا، فرماه بسوء التصور والفهم(١).

ولعل من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان، وُلد بالجيزة، وكان أبوه فرانًا، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للمعلمين، وانتقل إلى مدينة مصر وهو في العاشرة لطلب العلم، وبدأ في دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة وهو في الرابعة عشرة من عمره، ولفقره وحاجته إلى ما يستعين به في الحياة اضطر إلى أن يتكسب بالطب مرة، وبالتنجيم مرة أخرى، وبالتعليم كذلك، وفي الوقت نفسه كان يواظب على طلب العلم، ويجد في التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سني حياته؛ إذ بدأ يشتهر بالطب، وكفاه ما كان يكسبه عن طريقه؛ بل تفوَّق على غيره من الأطباء المعاصرين، وصار له ذِكْر حسن في البلاد، وسمع به الحاكم بأمره فاستخدمه، وجعله رئيسًا على سائر المتطببين، فاتسعت حاله، واقتنى الأملاك في المدينة، كما ذاع صيته في البلاد الإسلامية، حتى أن الأطباء فيها كانوا يناظرونه مراسلةً، ويطلبون ما عنده من علم الطب، فممن راسله الطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف باليبرودي الدمشقي الذي راسل ابن رضوان وغيره من الأطباء المصريين. ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: وله مسائل عدة إليهم طبية ومباحثات دقيقة، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا جدًّا من كتب الطب، ولا سيما من كتب جالينوس وشروحها وجوامعها(٢). ويُفهم من إحدى رسائل ابن رضوان أن اليبرودي زار مصر، وكان كثير الاختلاط به للمناظرة والمناقشة في المسائل الطبية(٣). كذلك ناظره الطبيب أبو الحسن المختار بن الحسن المعروف بابن

(١) المصدر السابق.

(٢) عيون الأنباء: ج٢، ص١٤١.

(٣) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري: ص٤٣ (مطبوعات كلية الآداب بجامعة القاهرة).

بطلان النصراني البغدادي، فكان بين الطبيب المصري والطبيب البغدادي مراسلات عجيبة، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابًا ولا يبتدع رأيًا إلا ويرد الآخر عليه، ويسفِّه رأيه فيه. ثم رأى ابن بطلان البغدادي أن يَفِدَ على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وأقام بها ثلاث سنوات، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطبيبين، وخرج ابن بطلان من مصر، ووضع كتابًا تضمن الوقائع التي كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان، ورد ابن رضوان عليه(١). ويقول ابن أبي أصيبعة في الموازنة بين الطبيبين ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي: كان ابن بطلان أعذب لفظًا، وأكثر ظرفًا، وأميز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطبَّ وأعلمَ بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها(٢). وحفظ لنا خمس رسائل لهذين الطبيبين في المناظرة بينهما، وطُبِعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

وكان ابن رضوان معتزًّا بعلمه ومهارته في فنه، فكان يرد على جميع أطباء عصره وغيرهم، وكان كثيرَ الرد على آراء مَن سبقه من الأطباء، وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على مَن يرد مناقشته، وأكثر ذلك عندما كان يرد على حنين بن إسحاق، وعلى أبي الفرج بن الطيب أستاذ ابن بطلان، وعلى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي(٣). وكان ابن رضوان دميم الخِلْقة، مشوَّه الصورة، أسود اللون، ومن تأليفه مقالة في مَن عيَّره بقبح الخلقة، وبيَّن في هذه الرسالة أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه، وكثيرًا ما كان ابن بطلان البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصري، حتى أنه قال في الرسالة التي وسمها بـ«وقعة الأطباء» يصف ابن رضوان:

(١) عيون الأنباء: ج٢، ص١٠١.
(٢) عيون الأنباء: ج١، ص٢٤٢.
(٣) عيون الأنباء: ج٢، ص١٠١.

فلما تبدَّى للقوابل وجهُه ... نكصْنَ على أعقابهنَّ من الندم
وقُلْنَ وأخفَيْنَ الكلامَ تستُّرًا ... أَلَا ليتنا كنَّا تركناه في الرحم

وكان يلقِّبه بتمساح الجن؛ لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه[1].

وتغيَّر عقل ابن رضوان في أواخر أيام حياته، وقيل: إن السبب في ذلك أنه في إبان المحنة العظمى التي حلَّت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمي، والتي اشتدت وعظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان ابن رضوان قد أخذ يتيمة ربَّاها كبرت عنده، فلما كام في بعض الأيام خلا لها المنزل، وكان قد ادَّخر أشياء نفيسة من الذهب نحو عشرين ألف دينار، فأخذت الجميع وهربت، ولم يظفر منها على خبر، فتغيرتْ أحواله منذ ذلك الوقت، وتوفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب.

كان لابن رضوان أثر كبير في الحياة العقلية بمصر؛ فهذه المناظرات الكثيرة التي كانت بينه وبين غيره من الأطباء، وهذه الردود المختلفة التي كتبها في الرد على الأطباء السابقين، كان لها أثرها في تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه عِلْمَه وطبه؛ فمن هؤلاء التلاميذ: الطبيب الإسرائيلي إفرائيم بن الزفان، وأبو كثير بن الحسن بن إسحاق، وكان من الأطباء المشهورين بمصر، واستخدمه الأئمة، وكان كثيرَ الاهتمام بجميع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكان عنده النساخ يكتبون، ولهم ما يقوم بكفايتهم منه، ومن جملة هؤلاء النساخ محمد بن سعيد بن هشام الحجري المعروف بابن ملساقة. وقيل: إن أحد ورَّاقي العراق أراد شراء كتب من إفرائيم، فسمع الأفضل بن بدر الجمالي بذلك، فأمر بفسخ هذه الصفقة، وأن تبقى الكتب في

(١) عيون الأنباء: ج١، ص٢٤٢.

مصر ولا تنتقل إلى بلاد أخرى، وأمر بشرائها وإضافتها إلى خزانة الأفضل، وكتب عليها ألقابه. ويقال: إن إفرائيم خلَّف ما يزيد على عشرين ألف مجلد[١].

وصنَّف الطبيب أبو جعفر يوسف بن حسداي شرحًا لكتاب الإيمان من كتب أبقراط، سماه «الشرح المأموني»، نسبةً إلى الوزير المأموني بن البطائحي.

ومن هذه الأمثلة التي ذكرناها عن حركة العلوم الطبية في مصر، ندرك مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين، وأن مصر استطاعت في هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية في مضمار هذا العلم، فوفد عليها عدد من الفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أمية بن أبي الصلت الأندلسي، وجاء مصر سنة ٤٨٩هـ وظلَّ بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠٩هـ، وكان أمية عالمًا في فنون مختلفة، شاعرًا فحلًا، وأديبًا ممتازًا بجانب علومه الفلسفية، سجنه الوزير الأفضل فصنَّف وهو بالسجن رسالة العمل بالإصطرلاب، وكتاب «الوجيز في علم الهيئة»، وكتاب «الأدوية المفردة»، وكتابًا في المنطق، وآخر سماه «الانتصار في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن إسحاق». وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم: أبا عبد الله الشامي، وسليمان بن الفياض الإسكندراني، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم، وسنتحدث عن أمية في باب الشعر من هذا الكتاب.

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا في الإلهيات في هذا العصر: أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرماني، ويُعرف في الدعوة الإسماعيلية بحجة العراقيين، وفد على مصر في عهد الحاكم بأمر الله. فهو يقول في رسالته «مباسم البشارات بالإمام الحاكم»: «فإني لما وردت الحضرة النبوية مهاجرًا، والسدة العلوية زائرًا، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم، والناس تحت ابتلاء

(١) عيون الأنباء: ج٢، ص١٠٥ (طبعة مصر ١٨٨٢).

عظيم...»[١]. ويخيل إليَّ أنه وفد على مصر عقب ثورة الدرزي، وظل بمصر نحوًا من عشر سنوات، وصنف بها عدة رسائل منها: «الرسالة الكافية» في الرد على الشريف الهاروني الحسني، و«الرسالة الواعظة» في الرد على الفرغاني ابن الأخرم أحد دعاة الدرزية، و«رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم»، ورسالة الصوم ... وغيرها. وإذا قرأنا رسائل الكرماني وكتبه نجده يتحدث في الفلسفة الطبيعية والإلهية كما في «راحة العقول»، وفي الفلسفة الإلهية كما في «الرسالة الدرية»، ورسالة النظم في مقابلة العوالم، ورسالة الرضية في جواب من يقول بقدم الجوهر وحدوث الصورة، والرسالة الحاوية وهي في البحث عن أيهما أسبق الليل أم النهار ... وهكذا نجد الكرماني تحدث في جميع أقسام الفلسفة، ولا سيما في كتابه «راحة العقل» الذي يُعد من أقوم كتب الفلسفة في العصر الفاطمي، فهو في هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية المصطبغة بالصبغة الإسلامية على المذهب الفاطمي. وحديثه عن إبداع العقل الكلي وصفاته وخصائصه، وانبعاث النفس الكلية وصفاتها، وعن العالم الروحاني، وعالم الكون والفساد، يدل على أن الكرماني كان من أكبر الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية، ولا غرو أن كان لهذا الداعي أثره في تاريخ المذهب الإسماعيلي إلى اليوم، فكلُّ مَن جاء بعده أخذه عنه، واقتبس من رسائله وكتبه.

مما سبق نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر الفاطمي ازدهارًا لا نجد له مثيلًا في الأقطار الإسلامية الأخرى؛ بل نجد غير الفاطميين كانوا يجنحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية، وأن القائمين بها من العلماء زنادقة، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقًا في تفكيرهم، وكان مذهبهم يقوم على الفلسفة، فجمعوا إليهم علماءها، وعقدوا مجالس المناظرات بينهم، فازدهرت بذلك الحركة العلمية، وقوي

(١) رسائل الكرماني (نسخة خطية بمكتبتي).

البحث للوصول إلى معرفة الحقيقة، مستعينين بالمنطق وآراء الفلاسفة الأقدمين.

obeikandl.com

الفصل الثاني
علوم اللغة العربية والفقه

(١) علوم اللغة والنحو:

بجانب هذه الدراسات الفلسفية التي ازدهرت بمصر الفاطمية، كان هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو، ورواية للأدب القديم وشرحه ونقده، وكانت هذه العلوم تسير جنبًا إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر، وكان هؤلاء العلماء كعبة يَفِدُ إليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم.

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر، فقد ذكرت في كتاب «أدب مصر الإسلامية» أن هذه العلوم وُجِدَتْ في مصر منذ بدأ المسلمون في مصر يقرءون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين، ويهتمون بإعجامه على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي وعبد الله بن أبي إسحاق، حتى إذا دُوِّن علم النحو وظهر كتاب سيبويه ونحاة الكوفة والبصرة، أقبل المصريون على الأخذ عنهم، واطرد نمو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر، وفاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس، وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والعصور التي تلته، وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم وعُرِفوا به، وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجِّعون هذه الدراسات، ويحبسون المرتبات للعلماء، وكيف حرصوا على اقتناء الكتب اللغوية والنحوية، وجعلوها مع غيرها من الكتب بين يدي العلماء والمتعلمين، فلا غرو أن رأينا عددًا كبيرًا ينبغون في هذه العلوم، ويصنفون كتبًا كثيرة في هذه الفنون، ويكفي أن نُلقي نظرة على كتب التراجم لندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات، وكيف تضاعفَ عدد الكتب التي أُلِّفَتْ فيها.

وكما كان الفلاسفة يجتمعون للمباحثة والمذاكرة في فنونهم، كذلك فعل علماء النحو واللغة، فقد قيل: إن جنادة الهروي والحافظ عبد الغني بن سعيد، وأبا إسحاق علي بن سليمان المعري النحوي، كانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة، وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات(١). وبلغ من اهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل، حتى لا يظهر في كتابات الكتاب لحن في اللغة أو خطأ في النحو، وسنتحدث عن ذلك في باب الكتابة الفنية.

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في هذا العصر، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز النحوي، كان في خدمة العزيز بالله الفاطمي، ويقال: إن العزيز تقدَّم إليه أن يؤلف كتابًا يجمع فيه سائر الحروف التي أشار إليها النحويون في قولهم: «إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى»، وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى، وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب، فبلغ جملة ما جمعه ألف ورقة. ويروي ابن خلكان عن أبي علي الحسن بن رشيق في كتاب الأنموذج: أن القزاز فضح المتقدمين، وقطع ألسنة المتأخرين، وكان مهيبًا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس، محبوبًا عند العامة، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا، يملك لسانه ملكًا شديدًا(٢). ولأبي عبد الله القزاز كتاب الجامع في اللغة، وهو من الكتب المختارة المشهورة، وتوفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة بالقاهرة.

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر في العصر الفاطمي علي بن أحمد المهلبي، فقد كان إمامًا في النحو واللغة، ورواية الأخبار وتفسير الأشعار،

(١) بغية الوعاة للسيوطي: ص٢١٣.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٥٤.

وكان من جلساء المعز والعزيز المقربين إليهما، وكان المهلبي قبل ذلك مقربًا إلى كافور الإخشيدي، وممن عاصر المتنبي في مصر، وكانت بينه وبين المتنبي بعض محاورات علمية. يروي ياقوت أن المهلبي قال: وقع بيني وبين المتنبي في قول العدواني:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وذلك أن المتنبي قال: إن الناس يغلطون في هذا البيت، والصواب: اشقوني من شقأت الرأس بالمشقاة وهو المشط. فقلت له: أخطأت في وجوه: أحدهما أنه لم يُرو كذلك، والآخر أنه يقال: شقأت بالهمزة، وأيضًا فإني أظنك لا تعرف الخبر فيه، وما كانت العرب تقول في الهامة؛ إنها إذا لم يثأر بصاحبها لا تزال تقول اسقوني، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم[١].

وللمهلبي كتاب في الرد على كتاب «المقصور والممدود» لابن ولاد المصري[٢]، وقيل: إن المهلبي أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبي ونسبها إلى نفسه. وروى كثير من المصريين عن المهلبي، ومن أشهر تلاميذه: أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمي، وابنه بهزاد، وعبد الرحمن بن إسماعيل العروضي نزيل مصر، وغيرهم. وتوفي المهلبي سنة ٢٨٥هـ[٣].

ومن أشهر علماء مصر في ذلك العصر: أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ الذي عُدَّ إمام عصره في النحو، وهو أحد الذين عُهِد إليهم تصحيح رسائل الكتاب في ديوان الإنشاء. يروي ابن خلكان: أن الخطيب التبريزي دخل مصر في عنفوان شبابه، وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوي وغيره

(١) معجم الأدباء: ج٢، ص٢٢٤ (طبعة رفاعي).
(٢) راجع كتاب «أدب مصر الإسلامية»: ص٦٩ وما بعدها.
(٣) راجع بغية الوعاة: ص٣٢٨، ومعجم الأدباء: ج١٢ ص٢٢٤، وأنباء الرواة: ج٤، ص٤٦٤.

علوم اللغة، ثم عاد إلى بغداد[١]. ألَّف من الكتب كتاب «المقدمة المحسنية في فن العربية»، ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وله شرح على هذه المقدمة، وشرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب الأصول لابن السراج، وله في النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النحاة بعده «تعليق الغرفة»؛ ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند من تصدر موضع ابن بابشاذ في حلقته بجامع عمرو، فقد انتقلت إلى تلميذه عبد الله محمد بن بركات السعدي النحوي اللغوي، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبي محمد عبد الله بن بري النحوي، ثم بعده إلى أبي الحسين النحوي المنبوز بثلط الفيل، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أخص تلاميذه، ويعهد إليه بحفظها. ولقد اجتهد جماعة من الطلاب في نسخها، فلم يتمكنوا من ذلك، وهكذا انتفع الناس بعلم ابن بابشاذ وبتصانيفه، وقد تزهد في أواخر أيامه، واستقال من عمله بديوان الإنشاء، وانقطع في غرفة بجامع عمرو، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع، فزلت قدمه فسقط، وأصبح ميتًا في اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة[٢].

وممن لهم أثر يُذكر من علماء النحو واللغة علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي، لم يكن مصريًّا، ولكنه من صقلية، فيها شبَّ، وقرأ على علمائها كابن البر أبي بكر الصقلي اللغوي وأمثاله، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفرنج على تملكها في حدود سنة خمسمائة، فوفد على مصر متخذها وطنًا له، ولقيه المصريون بالحفاوة، وبالغوا في إكرامه، وخصَّه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالرعاية، وجعله مؤدبًا لولده في علوم العربية وفنون الأدب. وقد روى ابن القطاع عن أبي بكر الصقلي كتاب الصحاح للجوهري،

(١) ابن خلكان: ج٢، ص٢٣٣.

(٢) راجع النجوم الزاهرة: ج٥، ص١٠٥، وابن خلكان: ج١، ص٢٣٥، وبغية الوعاة: ص٢٧٢.

وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب في الآفاق، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن بري النحوي المصري فيما تكلم عليه من حواشي الصحاح، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها: كتاب «الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة» -أي جزيرة صقلية- اشتمل على مائة وسبعين شاعرًا، وعشرين ألف بيت شعر، وكتاب الأسماء في اللغة، جمع فيه أبنية الأسماء كلها، وكتاب الأفعال، هذَّب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما في ثلاث مجلدات، وله تاريخ صقلية، وتوفي في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة، ودُفِن بقرب ضريح الشافعي(١).

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا في مصر في العصر الفاطمي، أمثال: محمد بن أحمد البازودي، ومحمد بن أحمد العميدي، ومحمد بن أحمد الجرجاني، ومحمد بن الحسين بن عمير اليمني صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كليلة ودمنة، وهو أستاذ القاضي القضاعي، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة، ومحمد بن علي بن محمد أبو سهل الهروي الذي إليه كانت رياسة المؤذنين بجامع عمرو، وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ الذي ولي قضاء دمياط، وله تصانيف أدبية ولغوية، كما كان شاعرًا له ديوان شعر، وهو الذي أجاز لأبي عبد الله الصوري الحافظ.

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى، نرى عددًا كبيرًا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية في طلب العلم أو الكسب به، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحًا من الزمان، ثم تركوها إلى بلادهم أو إلى غيرها من البلدان، ولكنهم تركوا في مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم، كما استفادوا هم من علماء مصر. نذكر من هؤلاء العلماء

(١) راجع بغية الوعاة: ص٢٣١، وابن خلكان: ج١، ص٣٣٩، ومعجم الأدباء: ج١٢، ص٢٧٩ (طبعة رفاعي).

محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي، وُلد بمكة، وقدم مصر في صباه، ورحل عنها إلى إفريقية، وأقام بالمهدية مدة طويلة، انتقل بعدها إلى صقلية، ومنها إلى مصر، ثم وفد على حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة، وفي هذه الفتنة نُهبت كتبه فقصد حماة، وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥. وكان لغويًّا أكثر منه نحويًّا، وله من الكتب: ينبوع الحياة في التفسير، التفسير الكبير، الاشتراك اللغوي، الاستنباط المعنوي، القواعد والبيان في النحو، الرد على الحريري في درة الغواص، المطول في شرح المقامات، وغيرها من الكتب(١).

ومحمد بن أبي الفرج الكناني الصقلي المعروف بالذكي النحوي، كان من صقلية، وطاف العالم الإسلامي حتى وصل إلى الهند، وكان من أئمة النحو، وتوفي بأصبهان سنة ٥١٦هـ(٢).

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخزرجي، تلميذ القاضي القضاعي وراويته، وكان نهاية في علوم العربية، وألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات، وأصله من لشبونة، ورحل إلى مصر حيث أقام بها ردحًا من الزمن، ثم عاد إلى مدينة بطليوس يحدِّث فيها بما رواه عن المصريين، وتوفي بها سنة ٥٠١هـ(٣).

وإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمي، وهو كوفي رحل إلى الشام ومصر، ثم عاد إلى موطنه، وبه توفي في شوال سنة ٤٦٦، وكان له حظ من الشعر، وتفوق في النحو واللغة، وهو صاحب القصيدة التي أنشدها وهو في مصر، ومنها:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني تنكرت دهري والمعاهد والقربى

(١) راجع بغية الوعاة: ص٥٩.
(٢) البغية: ص٩٠.
(٣) البغية: ص١١٥.

وأصبحت في مصر كالا يسرني ... بعيدًا عن الأوطان منتزحًا غربا
وإني فيها كامرئ القيس مرة ... وصاحبه لما بكى ورأى الدربا
فإن أنج من بابي زويله فتوبة ... إلى الله ألا مس خفي لها تربا

ومن الطريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الأبيات، وكان حصل له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية(١)، ومع ذلك فإنه كان يشعر بشدة الغربة عن بلاده.

ونذكر من هؤلاء العلماء: الرحالة عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي النحوي الذي كانت له حلقة في جامع عمرو للإقراء، وتوفي سنة ٥٢٠هـ(٢). وعبد الجبار بن محمد بن علي المعافري اللغوي الذي قدم مصر، وأقرأ بها العربية، ورحل إلى بغداد حيث ألقى بها علومه، وهو شيخ ابن بري المصري(٣). ومنهم الحسن بن الوليد القرطبي المعروف بابن العريف النحوي، فقد خرج إلى مصر، ورأس فيها، ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة(٤).

كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسي النحوي، قدم مصر، وأخذ عن علمائها، ثم توجه إلى معرة النعمان، ولازمَ أبا العلاء المعري، وأخذ عنه ديوان سقط الزند، وكتب نسخة جيدة لنفسه، وعاد إلى مصر فقدمها للحاكم بأمر الله الفاطمي، وقرأه عليه فأعجبه نظم المعري حتى قيل: إن الحاكم أرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمل المعري إلى مصر، فاعتذر المعري(٥).

(١) البغية: ص١٨٨.
(٢) البغية: ص٢٨٢.
(٣) البغية: ص٢٩٥.
(٤) البغية: ص٣٠٢.
(٥) البغية: ص٤٠٣.

إذن نستطيع أن نلمس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر، وكيف كثر عدد العلماء، وكثر إنتاجهم، كما تعددت أماكن هذا الدرس؛ ففي الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس، وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب، وفي جامع عمرو بالفسطاط استمرت حلقات التدريس التي تحدثنا عن نشاطها في كتابنا «أدب مصر الإسلامية». ولم تكن القاهرة والفسطاط مراكز الدرس في مصر فحسب؛ بل كانت الإسكندرية أيضًا تزخر بالعلماء الطلاب، وقد نقلت كتبُ التراجم عن الحافظ السلفي تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية في هذا العصر، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية.

كما يحدِّثنا السيوطي أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسيني النحوي قرأ على القاضي الأديب بأسوان الأدبَ، وظلَّ بأسوان تُؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب، وانتقل إلى قوص، وتوفي سنة ٥٤١هـ[١]. وكانت قوص من مراكز العلم في مصر، وسنتحدث عن ذلك كله فيما بعدُ، ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب الفسطاط والقاهرة.

(٢) القراءات وعلوم القرآن:

من المعروف أنَّ العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم، وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه، وتفسير غريبه، ومعرفة أسرار إعجازه، وتفهم معانيه، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبلُ في كتاب «أدب مصر الإسلامية»، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى

(١) البغية: ص٤٠.

جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورعايتهم؛ ففي كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القرَّاء في مقدمة الحاضرين يقرءون بين يدي الإمام، وكان كل قارئ يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكبر قسط من العطاء. وكذلك تُختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، فكان هناك قرَّاء الحضرة الإمامية، وهم أشبه شيء بموظفين رسميين في الدولة، ولهم جاريهم الشهري سوى الهبات والخلع، وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرًا جدًّا، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم، نذكر من هؤلاء العلماء: أبا الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الحوفي، فقد كان عالمًا بالعربية وتفسير القرآن، أخذ عن أبي جعفر النحاس وأبي بكر الإدفوي، ولقي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم، وتصدَّر للإفادة في العربية وإعراب القرآن وتفسيره، وأخذ عنه خلق كثير، وله تفسير اسمه «البرهان في تفسير القرآن» في ثلاثين مجلدًا، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشرة مجلدات، وصنَّف في النحو كتاب الموضح في النحو، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ صاحب كتاب إعراب القراءات في تسعة مجلدات. توفي الحوفي سنة ٤٣٠هـ[١].

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق أبا عدي المصري، المعروف بابن الإمام، مسند القراء في زمانه، قرأ على أبي بكر بن عبد الله بن مالك، وقرأ عليه عدد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غليون، ومكي بن أبي طالب، وابن نفيس وغيرهم. وتوفي سنة ٣٨١[٢].

ويقول صاحب الشذرات: إنَّ ابن الإمام كان محققًا ضابطًا لقراءة ورش، وإنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد، وقرأ على أبي بكر بن سيف صاحب

(١) راجع ابن خلكان: ج١، ص٣٣٢، والبغية: ص٣٢٥، وياقوت: ج٦، ص١٦٥.
(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٨٠.

أبي يعقوب الأزرق[١]. وكان أبو بكر الإدفوي محمد بن علي بن أحمد المصري المقرئ النحوي المفسِّر شيخ مصر وعالمها في عصره، كان أصله خشابًا، ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوي، وقرأ برواية ورش على أبي غانم المظفر بن أحمد، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر، وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع، وكانت حلقته من أكبر الحلقات العلمية، وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلدًا سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن. وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٨٧هـ[٢]. ويقول السيوطي: بل في سنة ٣٨٨هـ[٣].

ومن العلماء أيضًا عبد الجبار بن أحمد الطرسوسي، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه، ومن أساتذة أبي الظاهر إسماعيل بن خلف الصقلي، وله كتاب المجتبى في القراءات، وتوفي سنة ٤٢٠هـ[٤]. وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثماني، وهو المذكور في باب التكبير في الشاطبية، وتوفي سنة ٤٠١[٥]. ويروي ياقوت عن الحافظ السلفي: «أن عثمان بن علي بن عمر السرقوسي الصقلي كان من العلم بمكان، نحوًا ولغةً، وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره، وله تواليف في القراءات والنحو والعروض، وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء، وقرأ عليَّ كثيرًا، وعلى مَن كنتُ أقرأ عليه كأبي صادق وابن بركات الفراء الموصلي وآخرين»[٦].

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون بما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية،

(١) شذرات الذهب: ج٣، ص١٠١، (طبع مصر سنة ١٣٥٠هـ).
(٢) شذرات الذهب: ج٣، ص١٠١.
(٣) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٨٠.
(٤) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٨١.
(٥) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٨٢.
(٦) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٢، ص١٣٠.

ونستطيع من هذه اللمحة التي أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين، مدَّعين أن القرآن الكريم تأويلًا باطنيًّا يخالف ما يقول به المفسرون، قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر، وسمحوا لهم بالتحلق في المساجد، وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم؛ فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متسامحين مع غيرهم من أصحاب الفِرَق والنِّحَل الأخرى، وسنوضح ذلك فيما بعد.

(٣) رواية الحديث:

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى، وكثرت الرحلةُ في طلبه، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام، ومن أشهر المحدِّثين الذين كانوا في مصر الفاطمية أبو بكر محمد بن علي بن حسن المصري نزيل تنيس، وُلِد سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وسمع النسائي وأبا علي، وروى عنه الدارقطني وغيره، وتوفي سنة تسع وستين وثلاثمائة[١].

ومعاصره الحسن بن رشيق، أبو بكر محمد العسكري المصري، روى عن النسائي أيضًا، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد، وفيه يقول ابن الطحان في تاريخه الذين جعله ذيلًا لتاريخ ابن يونس المصري: «ما رأيت عالمًا أكثر حديثًا منه». ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وتوفي في جمادى الآخرة سنة سبعين وثلاثمائة[٢].

(١) حسن المحاضرة: ج١، ص١٩٩.
(٢) المصدر السابق.

والمحدِّث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور البلخي، روى عن ابن سعيد بن يونس، وروى عنه عبد الغني بن سعيد، وأقام بمصر وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة[١].

ومن أشهر الحفاظ في هذا العصر أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي، وُلِد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وتوفي والده بعد خمس سنوات من ولادته، ونشأ عبد الغني محبًّا للحديث، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبي القاسم الكناني المصري[٢]، وأبي بكر محمد بن علي، وابن مسرور البلخي، ثم اتصل بالدارقطني ولازمه وروى عنه. وقيل: إن الدارقطني سُئِل: هل رأيت في الحديث أحدًا يُرجَى علمه؟ فقال: نعم، رأيت شابًّا بمصر كأنه شعلة نار يُقال له: عبد الغني. ولما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودِّعون، وتحزنوا على مفارقته وبكوا، فقال لهم: لقد تركت عندكم خلفًا -يعني عبد الغني. وقيل أيضًا: إن عبد الغني لما صنف كتابه «المؤتلف والمختلف» عرضه على الدارقطني، فقال له: اقرأه. فقال: كيف أقرؤه لك ومعظمه أخذته عنك؟ فقال: نعم، أخذته عني متفرقًا والآن قد جمعته[٣]. وروي عن الدارقطني أيضًا أنه كان يقول عنه: ما رأيت في طريقي مثله، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة[٤].

وكان بين عبد الغني بن سعيد، وبين أبي أسامة جنادة اللغوي، وبين أبي علي المعري الأنطاكي مودةٌ أكيدة، واجتماع في دار العلم، ومذاكرات ومحادثات، فلمَّا أمر الحاكم بأمر الله بقتل جنادة وأبي علي الأنطاكي، استتر عبد الغني خوفًا من أن يلحق بهما لصداقته لهما، وأقام مستخفيًا مدة حتى حصل له

(١) المصدر السابق.
(٢) النجوم الزاهرة.
(٣) ابن خلكان: ج١، ص٣٠٥.
(٤) النجوم الزاهرة: ج٤، ص٢٤٤.

على الأمر فظهر، وتوفي في صفر سنة ٤٠٩هـ، وقيل: سنة ٤١٠هـ. ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامعه جعل الحافظ عبد الغني بن سعيد على بنائه ونظره[١]. وقد طُبع كتابه المؤتلف والمختلف بالهند سنة ١٣٢٦هـ.

ولعل أشهر المحدثين الذين شهدتهم مصر في أواخر الدولة الفاطمية، هو الحافظ السلفي، وكان متقنًا ناقدًا ثَبْتًا دَيِّنًا خيرًا، انتهى إليه علو الإسناد، وكان أوحد زمانه في علم الحديث، وأعلمهم بقوانين الرواية[٢]. ويقول صاحب النجوم: وكان قد طاف الدنيا ولقي المشايخ، وكان يمشي حافيًا لطلب العلم والحديث[٣]. ورد بغداد فأخذ عن أبي الحسن الهراس علوم الفقه، وعن الخطيب التبريزي علوم اللغة، وكما روى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره، ثم دخل دمشق وأخذ عن علمائها، ودخل الإسكندرية سنة ٥٢١هـ واستوطنها، فقصده الناس وسمعوا عليه، وبنى له العادل بن الحسن علي بن السلار وزير الظافر الفاطمي مدرسة بالإسكندرية سنة ٥٤٦هـ، وفوض أمرها إليه[٤]. وصار إليه الهجرة في الحديث، حتى لم يكن في آخر أيامه مثله، ومن أشهر تلاميذه: جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصغراوي الإسكندري، والحافظ أبو الحسن علي بن فاضل الصوري، والحافظ شرف الدين السكندري، وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهروا في العصر الذي يلي هذا العصر الذي نؤرِّخه.

ولما وفد أبو حامد الغزالي على الإسكندرية لقي الحافظ السلفي وتباحثا في بعض المسائل. أما كتبه وأماليه فهي كثيرة، وكذلك كان له بعض مقطعات من الشعر، فمن قوله في كبر سنِّه:

---

(١) النجوم الزاهرة: ج٤، ص١٧٩.
(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٠٠.
(٣) النجوم الزاهرة: ج٦، ص٨٧.
(٤) ابن خلكان: ج١، ص٣١.

أنـــا إنْ بـــانَ شـــبابي ومـــضى فلـــربي الحمـــد، ذهنـــي حـــاضر
ولـــئن خفـــت وجفـــت أَعْظُمـــي كـــبرًا، غـــصن علـــومي نـــاضر[١]

وذلك أن السن تقدَّمَتْ به حتى قيل إنه جاوز المائة بخمس سنين؛ إذ توفي سنة ست وسبعين وخمسمائة. ومن الرحَّالين الذين وفدوا على مصر في هذا العصر في طلب الحديث الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم، كما استفاد بعض المصريين منه، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣هـ[٢]. وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني، وكان أحد الرحالين في طب العلم والحديث بوجه خاص؛ روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس، وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ[٣].

(٤) دراسة مذاهب أهل السُّنة:

وهنا نعرض لموضوع كثر فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمي إلى الآن، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدي التعصب لمذهبهم الديني، وتطرَّفوا في عصبيتهم حتى أنهم أكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبةً لا رغبة، وأنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة، بل أفنوهم تقتيلًا، ويقول السيوطي: إن الفاطميين أفنوا مَن كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة -أي الشافعية والمالكية والحنفية- قتلًا ونفيًا وتشريدًا، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة[٤]. وذهب قليل من المؤرخين المحدثين إلى أنَّ الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية، وأن جوهر الصقلي

(١) النجوم الزاهرة: ج٦، ص٨٧.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٤٨٩.
(٣) ابن خلكان: ج١، ص٤٨٩.
(٤) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٧٤.

أعطى الأمان للمصريين بأن يختاروا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكثر وظائف الدولة من لم يكن مسلمًا، فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتَّاب دار الإنشاء من كان مسيحيًّا أو يهوديًّا، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عُرف بالتقلُّب في سياسته وأحكامه.

فقهاء الشافعية:

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ، رأينا عددًا كبيرًا من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية، ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يمسهم سوء. فمن علماء مذهب الشافعي: القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر، فقد أملى بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١هـ[١]. وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي؛ فقد كان فقيهًا محققًا ومناظرًا مبرزًا، وتوفي سنة ٤٧٧هـ[٢]، والقاضي أبو الحسن علي بن الحسن الموصلي الخلعي المولود بمصر سنة ٤٠٥هـ، وكان فقيهًا مشهورًا له تصانيف وروايات متسعة، وكان أعلى أهل مصر إسنادًا، وجمع له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءًا، وخرجها عنه وسماها «الخلعيات»، وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاه الفاطميون القضاء سنة ٤٥٠هـ، ولكنه استقال بعد يوم واحد، ومات بمصر سنة ٤٩٢هـ، ويُنسب إليه مسجد الخلعي بالقرافة، وكان والده أيضًا من فقهاء الشافعية، توفي بمصر سنة ٤٤٨هـ[٣].

(١) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٧، وتاريخ بغداد.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٨، وابن ميسر: ص٣٩.

ومن فقهاء الشافعية أيضًا في ذلك العصر: أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي، الذي قال عنه الحافظ السلفي: كان من أفقه الفقهاء بمصر، وعليه قرأ أكثرهم، وُلد بالقدس سنة ٤٤٢هـ وتفقه على الشيخ نصر المقدسي، ثم دخل مصر فظلَّ بها إلى أن توفي سنة ٥١٨هـ[١].

وكذلك نقول عن أبي الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي الميورقي الذي اتخذ الإسكندرية موطنًا له، وصنف تعليقه في الخلاف بين الفقهاء، وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلفي، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣هـ[٢]. ومجلي بن جميع بن نجا المخزومي المصري صاحب كتاب الذخائر، تفقَّه على سلطان المقدسي، وبرع في فقه الشافعي حتى صار من كبار الأئمة، وتفقه عليه جماعة، ومنهم العراقي شارح المذهب، وعلى الرغم من تمذهُبِه بمذهب يخالف مذهب أولي الأمر في البلاد، وفقد ولي القضاء سنة ٥٤٧هـ ومكث في القضاء عامين، ومات سنة ٥٥٠هـ، ومن تصانيفه: كتاب أدب القضاء، وكتاب الجهر بالبسملة[٣].

وأبو محمد عبد الله بن وفاعة بن غدير السعدي المصري الذي ولي قضاء الجيزة، فقد كان فقيهًا ماهرًا في الفرائض، أخذ عن الخلعي ولازَمَه مدة طويلة، وهو آخر من حدث عنه، ثم ترك القضاء واعتزل في القرافة متعبدًا إلى أن توفي سنة ٥٦١[٤].

(١) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) حسن المحاضرة: ج١، وابن ميسر: ص٩٥.
(٤) المصدران السابقان.

وسنتحدث في فصل التاريخ عن القاضي القضاعي الشافعي وكيف ولي القضاء وولي ديوان الإنشاء بالرغم من شافعيته، وأنه صنف كتابًا في مناقب الإمام الشافعي وأخباره، وكتاب الشهاب في فقه الشافعية[١].

وهكذا نرى عددًا كبيرًا من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون في العصر الفاطمي، ومنهم من ولي القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر في حياتهم العلمية أو العملية.

فقهاء المالكية:

وكذلك نقول عن فقهاء المالكية، فقد وجد في مصر الفاطمية عدد كبير منهم، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعال، الذي كانت إليه إمامة المالكية في وقته، وإليه كانت الرحلة بمصر، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عمودًا؛ لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصودنه للأخذ عنه، وتوفي سنة ٣٨٠هـ[٢].

وأبو القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي المصري صاحب مسند الموطأ، المتوفى في شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ[٣].

ونحن جميعًا نعلم قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي، أحد الأئمة المجتهدين في المذهب حتى وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم ير في المالكية أفقه منه، ونعلم كيف وفد إلى مصر لضيق حاله في بغداد، وكيف أكرمه المصريون حتى تمول وحسنت حاله، ولما أدركه المرضُ كان يقول: لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا! وتوفي بمصر ٤٢٢هـ.

(١) ابن خلكان: ج١، ص٤٦٢.
(٢) حسن المحاضرة: ج١، ص٢٥٦.
(٣) المصدر السابق.

ونسمع في هذا العصر عن عبد الجليل بن مخلوف الصقلي الذي قال ابن ميسر عنه: إنه أفتى بمصر أربعين سنة، ومات بها سنة ٤٥٩هـ. عن علي بن الحسن بن محمد بن العباس الفهري صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ، وعن أبي بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزيل الإسكندرية، وكان كثير الرحلة في طلب العلم، فسافر إلى العراق، وسمع ببغداد، ثم استوطن الإسكندرية، واتصل بالوزير المأمون البطائحي الذي أكرمه، فصنف له الطرطوشي كتاب «سراج الملوك». وكان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم الأزدي الذي خلفه في حلقته، والذي شرح المدونة، وتوفي الطرطوشي سنة ٥٢٥هـ، وتوفي تلميذه سنة ٥٤١هـ.

إذن تستطيع أن تطمئن إلى أن دراسة مذهب مالك استمرت في مصر في العصر الفاطمي بجانب مذهب الشافعي، بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى هذين المذهبين، وأن دعاة المذهب الفاطمي كثيرًا ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب السنية في مجالس حكمتهم وفي أشعارهم، وها هو ذا الداعي المؤيد في الدين يقول:

فما أبو حنيفة والشافعي ... حيثهم قد نفعوا بنافع(١)

ويقول مرة أخرى:

وتزيل لبس الشافعي ومالك ... ببيان زين العابدين وجعفر
وقياس قياس غدا متبرجا ... بالاعتزال وترهات المجبر(٢)

بيد أنَّ الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حريتهم العقلية، وسمحوا لهم بالتحلق في المسجد، وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، (من مطبوعات دار الكاتب المصري).
(٢) من القصيدة السابعة من ديوان المؤيد في الدين.

obeikandi.com

الطلاب، وقد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لما أمر بعمارة دار العلم، ونقل إليها الكتب من القصر، أسكنها من شيوخ السنة شيخين؛ أحدهما أبو بكر الأنطاكي، وخلع عليهما وقربهما، وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته، وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم. ويحدثنا عمارة اليمني أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يلقى في ولايته فقهاء السنة ويسمع كلامهم[١]؛ مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط في التعصب لمذهبه[٢].

(٥) تعصب الفاطميين لمذهبهم!

أمَّا هذه المسألة التي أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم، فيخيل إليَّ أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم، أحيانًا بالترغيب وأحيانًا بالترهيب، فكان الدعاة يؤدون واجبهم في تشكيك المسلمين في مذاهبهم السنية، ويحببون إليهم المذهب الفاطمي؛ فمن المصريين من استجاب لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعاة، ومنهم من استجاب لغرض التقرب إلى الحاكمين، عساه يجد حظوة لديهم وينال مآربه، وهذا اللون من الناس كثير في كل البيئات والأقاليم، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه الديني، واستمر يحافظ على عقيدته التي دان بها، والتي نشأه عليها أبواه، ولو أدى ذلك إلى تعسف الحاكمين معه، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف في سبيل نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم، فهذا أمر طبيعي نجد مثيلًا له في ظل كل الحكومات التي لها نزعة خاصة حتى في عصرنا الحاضر، فقد رأينا اليوم ألوانًا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية، وكلها تحاول فرض سلطانها ومبادئها في بلادها، وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة، وأن تحكم بالقوانين التي

(١) النكت العصرية: ص٤٥.

(٢) النكت: ص٤٨.

سنتها نظمها، ولو أدى ذلك إلى القتل والنفي والتشريد لكل من حاول مخالفة تلك النظم والقوانين، رأينا ذلك كله ولمسناه في هذا العصر الحديث، فلا نستطيع أن ننكر أنَّ الفاطميين الذين حكموا مصر من ألف عام تقريبًا، كانوا يستعملون وسائل الإرهاب لمخالفي عقيدتهم، ولا سيما أنَّ الشيعة عامة ذاقت من العذاب والتنكيل على أيدي خصومهم ما تتحدث به كتب التاريخ.

كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم بمصر إلى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم، ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمر هذا المبلغ الذي نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين، ففي هذا العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمرًا طبيعيًّا لتثبيت أركان الدولة، وحمايتها من أعدائها؛ أمويي الأندلس في الغرب، ومن العباسيين في الشرق؛ فكانت السياسة تقضي على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم، وأن يشحذوا السيف لكل من تحدثه نفسه بالخروج على سلطانهم، ولا سيما أن العباسيين وأمويي الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين في نسبهم وفي عقائدهم، وحاربوا الفاطميين بالسيف طورًا وبالدعاية طورًا آخرى، فكتبوا المحاضر في نسب الفاطميين، وطلبوا من العلماء والكتاب الطعن في عقائد الفاطميين، مثل ما نراه في كتب الغزالي وغيره؛ فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جدَّ الجد، وأن يعتبروا كل من لم يعتنق عقيدتهم عدوًّا لهم، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله في سياسته، فكان حينًا يقرب أهل السنة ويغدق عليهم أمواله، وطورًا يشتت شملهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن، وهو في كلا الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة أو تلك على حسب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه، فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنونًا كما يصور في كتب التاريخ؛ وإنما كان سياسيًّا حازمًا في سياسته، يعفو في وقت العفو، ويقتل حين يشتد به الأمر، وهكذا كان الحال في سياسة الفاطميين نحو أهل السنة.

فحينًا ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الإسلامية أو الذمية، فهم يستخدمونهم في وظائف الدولة، ولا يتعرضون لهم بمقتٍ ولا أذى، وقد قال القاضي النعمان في كتابه «المجالس والمسايرات»(١): «لما قلدني القضاء بالمنصورية، رأيت قومًا لم يصلوا إلى الدعوة، ورأيت فيهم مقاربة، ورجوت أن يهديهم الله إن فتح في ذلك لعباده، فلما جاء الله من ذلك بما هيأه لخلقه من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم، ورمزت لهم وطارحتهم، فلم أرهم يقبلون على شيء، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتهم، فلم يزدهم ذلك إلا تماديًا في الغي وإصرارًا على الجهل، فثقل عليَّ أمرهم، وكرهت جانبهم، وأبغضت رؤيتهم، وسئمت صحبتهم، فأردت الاستبدال بهم، فرفعت ذلك إلى المعز، فوقع إليَّ فيهم: أبقهم على خدمتك، فإن يفئ الله بهم فسعادة ساقها الله إليهم، وثواب يصير إليك بما بذلته من النصيحة لهم، وإلا فلا يمنعك جهل الحُمر المستنفرة من الانتفاع بها في بعض مصالحك، ويكونون بعد كما قال الله عز وجل: ﴿عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية﴾».

وحينًا آخر كان الفاطميون يضطرون اضطرارًا إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشدة والعنف، حتى ولي المستنصر بالله سنة ٤٢٧هـ، فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سلطة من الخلفاء، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، وأصبح الخليفة الفاطمي أُلعوبة في أيدي وزرائه، وليس له من الأمر إلا الخطبة، وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يخالف المذهب الفاطمي(٢). هنا نرى حدة العصبية الأولى تخف، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل؛ بل ذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن

(١) المجالس والمسايرات: ورقة ٧٣ب، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٢) راجع ما كتبناه عن ذلك في مقدمة كتاب المجالس المستنصرية.

بدر الجمالي إلى أن يعين للبلاد أربعة قضاة؛ اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة، فالشيعيان أحدهما فاطمي المذهب والآخر إمامي المذهب، والسنيان أحدهما شافعي والآخر مالكي، وأعطى لكل واحد السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه(١). وقد ذكرنا أنَّ الوزير أبا الحسن علي بن السلار وزير الظافر كان ظاهر التسنن شافعي المذهب، وهو الذي أنشأ مدرسة للشافعية بالإسكندرية، وفوض أمرها إلى الحافظ السلفي(٢). وهكذا بدأ الضعف يدب في الدولة الفاطمية والمذهب الفاطمي نفسه، حتى همَّ بعض الوزراء في مصر إلى تسيير الدعوة لابني صاحب عدن، ويقول عمارة اليمني في ذلك: إن الداعي ابن عبد القوي والأجل الفاضل، وشاور، والكامل، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء بتسيير الدعوة لولدي صاحب عدن بعد موته، ثم قال شاور: أحضروا فلانًا (يعني عمارة) وخذوا ما عنده. ولم يبق في النوبة إلا صرمها، فلما حضرت وأعلموني منعتهم، وقلت: إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوي ويتولونكم لأجل الدعوة، فإذا تبرعتم بها فقد هونتم حرمتها. فرجع الجميع عما كانوا عليه(٣).

وقصة أخرى رواها عمارة أيضًا تدلنا على ما بلغ إليه التهاون في عقيدة الفاطميين؛ ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبي الهيجاء -صهر الصالح بن رزيك- توضأ ومسح رجليه ولم يغسلهما -على حسب عقيدة الفاطميين- فتناول عمارة الإبريق وسكب الماء على رجليه، فجذبهما وهو يضحك، فقال عمارة: إن كان الحق معكم في مسح الرجلين يوم القيامة، فما نعطى ولا نعاقب على غسلها، وإن كان الحق معنا في غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة؛ لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض. فكان سيف الدين يقول له بعد

(١) أخبار مصر لابن ميسر: ص٧٥.
(٢) ابن خلكان: ج١، ص٣٧٠.
(٣) النكت: ص٩٢.

ذلك: والله لقد أدخلت على قلبي الشك والوسواس بكلامك في مسألة الوضوء[١].

ولعل قصة محاولة إدخال عمارة اليمني في الدعوة من القصص التي ترينا أن القائمين بأمر الدولة الفاطمية في أواخر عهدها لم يأبهوا بأمر المذهب، وأنهم كانوا يتسامحون مع مخالفيهم إلى حدٍّ بعيدٍ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمي، وأنه أدخل عددًا من المسلمين في مذهبه، فإنه لم يستطع أن ينجح في محاولته مع عمارة. يقول عمارة: وكانت تجري بحضرته مسائل ومذاكرات، ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك، لا أنطق بحرفٍ واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل: ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾، ونهضت فخرجت فأدركني الغلمان، فقلت: حصاة يعتادني وجعها. فتركوني، وانقطعت في منزلي أيامًا ثلاثة، ورسوله يأتي في كل يوم والطبيب معه، ثم ركبت بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتي، فقلت: إني لم يكن بي وجع؛ وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت، وإلا فلا، وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة. فعجب من هذا، وقال: سألتك بالله ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلمٍ إلا ومحبتهما واجبة عليه. فضحك، وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها أبيات بخط الملك الصالح، ومعها ثلاثة أكياس ذهبًا، وفي الرقعة:

قل للفقيه عمارة يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل «حطة» وادخل إلينا البابا

(١) النكت: ص١٢٦.

تلــق الأئمــة شــافعين، ولا تجــد | إلا لـــــدينا ســـــنة وكتابـــــا
وعــليَّ أن يعلــو محلــك في الــورى | وإذا شــــفعت إلي كنــــت مجابــــا
وقبــضت آلافًــا وهــــن ثلاثـــة | صـــلة وحقــك لا تعــد ثوابــا

فأجابه عمارة مع الرسول بهذه الأبيات:

حاشــاك مــن هــذا الخطــاب خطابــا | يــا خــير أمــلاك الزمــان نــصابا
لكـــن إذا مـــا أفـــسدت علماؤكـــم | معمــــور معتقـــدي وصـــار خرابـــا
ودعـــوتم فكـــري إلى أقـــوالكم | مـــن بعــد ذاك أطــاعكم وأجابــا
فاشــدد يــديك عــلى صــفاء محبتــي | وامــنن عــلي وســد هــذا البابــا(١)

ولا أدري كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين بالبيت الثاني من هذه المقطوعة، ولكن الأمر لم يكن أمر تعصب من الملك الصالح بن رزيك، بل هو أمر تهاون بالمذهب شمل الأمراء وغير الأمراء، ولعل هذا الضعف الذي حل بالعقيدة الفاطمية هو الذي سهل الأمر لصلاح الدين الأيوبي في أن يقوض أركان الدولة المتداعية، وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل السنة والجماعة، وقبل الناسُ منه ذلك، فتحولت مصر بعد عشيةٍ وضحاها من شيعية إلى سُنية؛ لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة في نفوس المصريين، وأنَّ الذين اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها؛ فسهل على الأيوبيين أن ينتزعوها منهم.

(١) النكت: ص ٤٣ وما بعدها.

obeikandi.com

الفصل الثالث
التاريخ والسِّيَر

رأينا في عصر الولاة بمصر[١] كيف أسهم المصريون في تدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا في العصر الذي سبق العصر الفاطمي، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، وعمار بن وسيمة المصري، وابن يونس، والكندي، وابن الداية وغيرهم. وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمي، فظهر عدد كبير من المؤرخين، وحُفِظت لنا أسماء مؤلفاتهم، وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة في كتب التواريخ، ففي كتب المقريزي وأبي المحاسن بن تغري بردي والسيوطي وابن فضل الله العمري والنويري والقلقشندي مقتبسات كثيرة من الكتب التي وضعها مؤرخو مصر الفاطمية، وهذه المقتطفات تدلنا على أنَّ مؤرخي مصر في العصر الفاطمي كانوا يهتمون اهتمامًا خاصًّا بمصر، فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر، وإنْ كان منها ما كُتِب في التاريخ العام.

فمن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر: أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني، وُلد بمصر في ذي الحجة سنة ٣٢٧هـ، وكان أبوه مؤرِّخًا صاحب ابن جرير الطبري وروى عنه تصانيفه، وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبري، وصنَّف عدة كتب منها: كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه، وكتاب سيرة كافور الإخشيدي، وسيرة العزيز بالله الفاطمي، وكان مقامه بمصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٩٨هـ[٢].

---

(١) راجع كتاب «أدب مصر الإسلامية»، (من مطبوعات دار الفكر العربي).

(٢) معجم الأدباء لياقوت: ج٣، ص١٠٥.

(١) ابن زولاق:

وشهد هذا العصر المؤرخ المصري الكبير الذي أخذ عنه كلُّ مَن جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر، ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثي المصري المعروف بابن زولاق؛ فقد كان من أعيان علماء مصر، وُلد سنة ست وثلاثمائة، وروى الحديث، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان وغيره، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندي وابن قديد وابن الداية، يقول ابن زولاق: كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب (أي: ابن الداية) قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبي الجيش، وانتشرتا في الناس، وقرأتهما عليه، وحدثت بهما مع غيرهما من مصنفاته، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما[١].

وكان ابن زولاق من فُرط حبه لرواية التاريخ، كثيرًا ما ينشد:

مـا زلـت تكتـب في التـاريخ مجتهـدًا حتـى رأيتـكَ في التـاريخ مكتوبـا[٢]

وصنف ابن زولاق عدة كتب منها: سيرة محمد بن طغج الإخشيد، وكتاب أخبار سيبويه المصري، وكتاب سيرة المادرائيين -وقد طُبعت هذه الكتب كلها- وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر، وأخرى بدار الكتب المصرية، وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس)، وكتاب سيرة كافور، وكتاب سيرة جوهر، وكتاب سيرة المعز، وكتاب سيرة العزيز، وكتاب التاريخ الكبير على السنين، وله تذييل على كتاب الولاة للكندي، وآخر على كتاب القضاة للكندي أيضًا، وكتاب خطط مصر. وأكثر هذه الكتب فُقدت ولم يَبْقَ منها إلا شذرات متفرقة في الكتب، وإذا نظرنا إلى الكتب التي حُفظت إلى الآن

(١) المغرب في حلى المغرب: ص٤.

(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر في رثاء أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٤٧هـ.

نرى ابن زولاق يدوِّن ما سمعه من الثقات العدول من معاصريه، أو ما شاهده بنفسه من أحداث، فهي سجلات حوادث يتلو بعضها بعضًا دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى، فالكتب ليست بكتب تاريخ على النحو الذي نفهمه الآن من كتب التاريخ؛ بل هي أشبه شيء بجرائد الأخبار في عصرنا الحديث، وإنْ كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث التي حدثت في عصر ملك من الملوك. ولم تُقسَّم الكتب إلى أبواب وفصول، بل هي كما قلت مجرد سرد للحوادث، كما أنَّ أكثرها ليس مرتبًا على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التي ذكرها، فقد تجد حادثة في أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التي جاءت بعدها، ومهما يكن من شيء فقد كان تأليف كتب السير في ذلك العصر على هذا النحو الذي نراه في كتب ابن زولاق، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدرًا هامًّا من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده؛ فابن خلكان، والنويري، وابن حجر العسقلاني، والسيوطي، وابن دقماق، وأبو المحاسن، وياقوت، والقلقشندي، والعمري... وغيرهم، نقلوا كثيرًا من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق، وكانوا يطلقون عليه «مؤرخ مصر» مما يدل على قيمة كتبه وأخباره، ولا غرو في ذلك فقد كان محدثًا، والمفروض في المحدث أن يكون صدوقًا فيما يرويه، وقد تكون ميزة ابن زولاق الكبرى هي صِدْق أخباره، حتى عُرف بذلك بين معاصريه أنفسهم، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة في نفوسهم، وقد ذكرنا قصته مع الوزير يعقوب بن كلس. وتوفي ابن زولاق في عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة[١].

(١) ابن خلكان: ج١، ص١٣٤، ومعجم الأدباء: ج٧، ص٢٢٥.

(٢) المسبحي:

ومن مؤرخي هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم: المؤرخ الأمير المختار عز الملك بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد المعروف بالمسبحي، الحراني الأصل، المصري المولد والنشأة؛ وُلد في رجب سنة ست وستين وثلاثمائة، واتصل في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله في زمرة جنده، وما زال يرقى في مراتب الجندية حتى صار أميرًا على إقليم البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر، ثم ولي ديوان الترتيب، ويُنقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذاكرات أودعها كتابه «التاريخ الكبير»، الذي وصفه بقوله: «التاريخ الجليل قدره، الذي يستغني بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه، وهو أخبار مصر، ومَن حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، وما بها من العجائب والأبنية، واختلاف أصناف الأطعمة، وذكر نيلها، وأحوال مَن حل بها، وأشعار الشعراء، وأخبار المغنين، ومجالس القضاء والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم، وهو في ثلاثة عشر ألف ورقة». ويدلنا هذا النص على أن المسبحي لم يهتم بالتاريخ السياسي فحسب؛ بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، ومن المؤلم حقًّا أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم، ولم يَبْقَ منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة في كتب التاريخ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

لم يكن الأمير المسبحي مؤرخًا فحسب، بل كان أديبًا له ذوق فني واطلاع واسع في ميدان الأدب، وألف في ذلك الميدان كتبًا كثيرة منها: كتاب «التلويح والتصريح» في معاني الشعر، وكتاب «الشجن والسكن» في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه، وكتاب «جونة الماشطة» يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع، وكتاب «الراح والارتياح» في

وصف الشراب وآلاته والندامى عليه، واختيار أوقاته، وذكر الأزهار والرياض والثمار والأشجار، وكتاب «الغرق والشرق»، وكتاب مختار الأغاني ومعانيها، وكتاب المفاتحة والمناكحة في أصناف الجماع، وكتاب الطعام والإدام في صفة ألوان الطعام وما يقدم على الخوان، وكتاب البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمتنبئين وذكر الفرائض والآداب، وكتاب الجوعان والعريان، وكتاب القران والتمام، وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ... إلى غير ذلك من الكتب. كما كان شاعرًا رقيق العاطفة دقيق الحس، فمن شعره في رثاء أم ولده:

ألا في سبيل الله قلب تقطَّعَا ... وفادحة لم تُبْقِ للعين مَدْمَعَا
أصبرًا وقد حلَّ الثرى من أودِه ... فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت قد متُّ قَبْلَها ... وإلا فليتَ الموتَ أذهبنا معا

وانظر إليه وهو يرثي والده سنة ٤٠٠هـ:

خطب ألمَّ من الزمان عظيمُ ... فالدمع سح للمصاب سجومُ
خطب يقلُّ له البكاء وينطوي ... عنه العزاء ويظهر المكتوم
خطب يميت من الصدور قلوبها ... أسفًا، ويقعد ثأره ويقيم
يا دهر قد أنشبت فيَّ مخالبًا ... بالأسودين لوقعهن كلوم
يا دهرُ قد ألبستني حلل الأسى ... مُذْ حلَّ شخص في التراب كريم
لو كنتَ تقبل فديةً لفديتُ مَن ... رضت عظامي فيه وهو رميم
يا مَن يلوم إذا رآني جازعًا ... من طارق الحدثان فيم تلوم؟
بأبي فجعتُ فأي ثكل مثله ... ثكل الأبوة في الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلمَّ به الأذى ... أو يعتريه من الزمان همومُ

وبجانب هذه النفحة الأدبية كان المسبحي يلم بالنجامة، وله في ذلك كتاب «القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم». من هذا كله نستطيع أن

ندرك أن المسبحي كان من أركان الحركة العلمية والأدبية في مصر الفاطمية، وقد استفاد منه المؤرخون الذين جاءوا بعده، فاقتبسوا من مؤلفاته، ولقبوه بمؤرخ الفاطميين. وتوفي المسبحي سنة عشرين وأربعمائة، ورثاه جماعة من شعراء عصره، ذكرهم ولده في تاريخه وذكَرَ مراثيهم(١).

(٣) القضاعي:

ومن المؤرخين النابهين في هذا العصر، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تفقَّه على مذهب الشافعي، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء، ثم اتصل بالوزير الجرجرائي فجعله الوزير كاتب علامته، ثم عمل في ديوان الإنشاء، وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧هـ رسولًا من قِبَلهم إلى الإمبراطورة تيودورا؛ لإصلاح ما فسد من العلاقات بين المصريين والبيزنطيين، ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصداقة المصريين إذ ذاك، وفضلوا أن يتحالفوا مع طغرلبك التركماني(٢)، ولما عاد القاضي القضاعي من هذه السفارة اتخذه الوزير اليازوري كاتبًا لإنشائه وعلامته، وهكذا كان مُقَدَّمًا عند الفاطميين بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم.

ألَّف القضاعي كتبًا كثيرة نذكر منها: كتابه في مناقب الإمام الشافعي وأخباره، وكتاب الشهاب، وكتاب الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء، وكتاب خطط مصر، وقد وهم المقريزي حين قال(٣): «إن أول مَن رتب خطط مصر وآثارها، وذكر أسبابها في ديوان جمعه، هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي كتابه

(١) راجع ابن خلكان: ج١، ص٥١٥، النجوم الزاهرة: ج٤، ص٢٧١، المغرب: ص٩٦، وحسن المحاضرة: ج١، ص٢٦٥.

(٢) راجع ذلك بالتفصيل في السيرة المؤيدية، ونجد شيئًا من ذلك في أخبار مصر لابن ميسر.

(٣) الخطط: ج١، ص٦.

المنعوت بالمختار في ذكر الخطط والآثار، ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سني الشدة، فدثر أكثر ما ذكر». فإن أول مَن تحدث من مؤرخي مصر عن الخطط هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر»[١]، وتبعه المؤرخون بعده.

والقاضي القضاعي كان أستاذ مدرسة في رواية التاريخ، أخذ عنه عدد كبير من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال السعدي النحوي المولود سنة ٤٢٠هـ، صاحب كتاب خطط مصر[٢]، وكان ابن بركات نحويًّا لغويًّا، وله في هذه العلوم كتاب الإيجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ، ألفه للأفضل بن بدر الجمالي، وله تصانيف في النحو حتى قيل: إنه بحر العلوم. وعنه روى الحافظ السلفي، والبوصيري صاحب البُردة، وأبو الميمون عبد الوهاب المالكي، وهبة الله بن صدقة المعروف بأبي الرداد وغيرهم، وتوفي ابن بركات سنة ٥٢٠هـ.

وممن روى عن القضاعي: أبو عبد الحميدي، والخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب تاريخ بغداد، فقد قابلَ القضاعي في الحج سنة ٤٤٥هـ، وروى عنه. وهكذا كان أثر القضاعي في معاصريه، كما أن الذين جاءوا بعده نقلوا كثيرًا من رواياته، واقتبسوا من أقواله. وتوفي القضاعي سنة ٤٥٧هـ[٣].

ومن المؤرخين في أواخر العصر الفاطمي: ابن المأمون البطائحي، وكان والده وزيرًا للآمر بأحكام الله، ونحن لا نعرف شيئًا عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه، ولكن المقريزي اقتبس كثيرًا من كتاباته في مواضع متفرقة.

---

(١) راجع كتاب «في أدب مصر الإسلامية».

(٢) بغية الوعاة: ص٢٤.

(٣) ابن خلكان: ج١، ص٤١٢، وابن ميسر: ص١٤، وحسن المحاضرة: ج١، ص٢٢٧، وطبقات الشافعية: ج٣، ص٦٣.

(٤) فن السير:

أمَّا فن السير، وهو ذلك الفن الذي يُعدُّ من فنون التاريخ، فقد كان له شأن كبير في الحياة الفكرية في مصر الإسلامية؛ ذلك أن كتَّاب مصر وعلماءها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم، وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم، رئيس المدرسة المالكية في مصر في القرن الثاني للهجرة[١]. وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه أبي الجيش، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد، وسيرة ابنه، وسيرة كافور، وسيرة المعز لدين الله، وسيرة العزيز، وسيرة سيبويه المصري. وكتب القاضي النعمان سيرة المعز لدين الله، وكتب محمد بن محمد اليماني سيرة جعفر الحاجب، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كلَّ ما وصل إلينا في فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهذا الفن. ويُخيل إليَّ أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتمامًا خاصًّا، نراه ممثلًا فيما تركته مصر الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشًا على جدران المعابد والمقابر، أو مسطرًا على ورق البردي، ونراه في مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سِير من سبقوهم من الآباء والقديسين. وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة في فن السير، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين.

وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن، أنهم وضعوا للشعب سِيرًا عن أبطال أحبَّهم المصريون، وردَّدَ الشعب هذه السير في اجتماعاته ومغانيه، مثل سيرة عنترة بن شداد، وسيرة الهلالية، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

---

(١) راجع كتاب «في أدب مصر الإسلامية».

وقد حصلنا أخيرًا على مخطوطين في فن السير: الأول «سيرة الأستاذ جوذر»، والثاني «سيرة المؤيد في الدين».

سيرة الأستاذ جوذر(١):

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذِكْرهم، وهو الأستاذ جوذر الصقلي، مع ما كان له من مكانة رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر، ومع ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين.

يحدِّثنا هذا الكتاب عن دخول جوذر في خدمة المهدي بالله الفاطمي، وأن المهدي أهدى هذا الغلام إلى ولي العهد القائم بأمر الله، وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيده؛ إن القائم -وكان لا يزال ولي العهد- عندما خرج لغزو بلاد المغرب حتى سنة ٢٠٠هـ، استخلف جوذر على قصره وجميع مَن فيه من حرمه وأهله، ولما توفي المهدي بالله سنة ٢٢٢هـ خصَّ القائمُ عبدَه جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع لولي عهده المنصور بن القائم، فظل هذا السر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملأ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال، ووكل بخزائن الكساء، كما كان سفيرًا بين الخليفة وسائر الناس.

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر، وأصبح له نفوذ قوي في هذه الدولة الناشئة، فهابه الناسُ، ولحُبِّه للخير وعطفه على الشعب أحبَّه الناس، وتوفي القائم بعد ذلك، ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه، فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر، وخرج لحرب الخارجين عليه مستخلفًا جوذر على دار الملك وسائر البلاد، وسلَّمَه مفاتيح خزائن الأموال، ولما عاد من حروبه أعلن موت القائم، وكافأ

(١) هو الذي تُنسَب إليه عطفة وحارة وشارع الجوذرية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة.

جوذر على خدماته، فأعتقه ولقَّبَه «مولى أمير المؤمنين»، وأمره ألا يُكني في رسائله أحدًا، ولا يقدِّم على اسمه اسمًا إلا الخليفة وولي العهد، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولي العهد، وأن يثبت اسمه على الحُصُر والبُسُط، كل ذلك إمعانًا في تشريفه.

وفي خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه، إلى أن فُتحت مصر، وأراد المعز أن يسير إليها، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيئول إلى جوذر، ولكن جوذر أَبَى أن يفارق إمامه فسار معه إلى مصر، ولكنه توفي بالقرب من مدينة برقة في مكان يُعرف بمياسر سنة ٦٣٢هـ.

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية، الذين كان لهم أثر قوي في هذه الدولة منذ نشأتها، وإنما يوضِّح هذا الكتاب بعض نواحٍ تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرًّا سريعًا، ففي الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية، وكادت تقوض أركان تلك الدولة، كما يطلعنا على العلاقة بين الفاطميين وصقلية، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة، ومن قرصان البحر، ويظهر سبب الجفاء الذي كان بين المنصور وبين بني عمومته من أولاد المهدي، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد في تأديبهم ورصْدِ حركاتهم. أضِفْ إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية؛ فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التي خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر، ورسائله إليهما، وقد بلغ عددها في هذا الكتاب نحو المائة، فالكتاب أشبه بديوان توقيعات للفاطميين، ولا أكاد أعرف كتابًا جمع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب، وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان الذي جمع في مصنفه بعض توقيعات المعز إليه، وكتاب السجلات المستنصرية الذي جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليحيين باليمن.

وأجد في سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله، وخطبة المنصور في نعي القائم، وخطبة المعز في نعي المنصور، وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية في العصر الفاطمي بالمغرب.

أمَّا مصنف هذه السيرة فهو رجل مغمور لا نكاد نعرف عنه إلا أنه منصور الجوذري العزيزي، وأنه دخل في خدمة الأستاذب جوذر كاتبًا له سنة ٣٥٠هـ، وأصبح موضع سره، وظل في عمله إلى أن توفي جوذر فاتصل بالمعز فالعزيز. ويتضح من كلامه أن العزيز جعله في مرتبة رفيعة هي نفس المرتبة التي كان فيها جوذر، ويضيف المقريزي أن أبا علي منصورًا الجوذري زادتْ مكانته في عهد الحاكم بأمر الله، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك(١).

هذا كل ما نعرفه عن واضع هذه السيرة، ونستدل من هذه السيرة أنها صُنِّفت في عهد العزيز بالله الذي ولي سنة ٣٦٥هـ، وتوفي سنة ٣٦٨هـ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد السنة التي أُلِّفَتْ فيها(٢)، ونرجو أن نُوفَّق إلى نشر هذا الكتاب قريبًا.

السيرة المؤيدية:

لا أكاد أعرف كاتبًا من كتَّاب المسلمين، سبق المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعاة -الذي تحدثنا عنه من قبل- في تصنيف كتاب خاص لسيرته. فقد ترجم لنفسه في هذا الكتاب بفصل من تاريخ حياته؛ أي من سنة ٤٢٩هـ إلى سنة ٤٥٠هـ، وأودع هذا الكتاب بعض رسائله ومناظراته العلمية المذهبية. ولما كان المؤيد ممن أسهم في الحياة السياسية في هذه الفترة، فهو

(١) خطط المقريزي: ج٢، ص٦.

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الكتاب في مجلة الكاتب المصري، المجلد الثامن، عدد ٣١ إبريل سنة ١٩٤٨.

يوضِّح جهوده وحركاته وسكناته منذ كان في بلاط أبي كاليجار البويهي بفارس، فوصف المؤيد حياته في هذه البلاد، كما وصف هذه الحياة التي كان يحياها السلطان مع الندماء، وصلة السلطان بالعباسيين، وكان المؤيد متصلًا برجال المستنصر الفاطمي من وزراء وكتَّاب ودعاة، فاضطر إلى أن يتحدث عن شيء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب، وأسرار وزراء مصر في ذلك العصر، وذهب المؤيد لمؤازرة البساسيري في العراق، واجتمع بعدد كبير من أمراء العرب والأتراك والأكراد، فتحدَّثَ عن هذه الحركة السياسية التي كادت تقوض أركان العباسيين، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد فحسب، بل هو مصدر هام للحياة السياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري؛ لأنَّ المؤيد ترجَمَ لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه، والكتاب قيم جدًّا في دراسة هذه السنوات الإحدي والعشرين التي كان بها أحداث وخطوب، وكان لها أثر قوي في مجرى الحياة الإسلامية عامة، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه[1]، فهو في متناول القرَّاء الآن.

وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية في مصر الفاطمية كما كانت قوية قبل عصر الفاطميين؛ ففن التاريخ وروايته من الفنون التي ازدهرت في مصر في عصورها المختلفة، شغف به المصريون فأكثروا من روايته وتدوينه.

خاتمة القول في الحياة العقلية

قلنا: إنَّ العقائد الفاطمية كان ميدانًا فسيحًا للعقل، وأن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية في وقتٍ كانت فيه هذه الدراسات موضع هجمات عنيفة في الأقطار الإسلامية الأخرى، بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة، ويصبغون هذه الآراء والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التي بشَّروا بها،

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، (من مطبوعات دار الكاتب المصري).

فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفي الأخذ عن القديم، والاجتهاد في المذهب، ما لا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة في الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة؛ فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية، ومجالس حكمتهم، كانت تدور قبل كل شيء حول صاحب النص المعصوم، وتثبيت إمامته، وإظهار الإمام بمظهر الجلال والقدسية، فكأنَّ الفاطميين في مصر قد أعادوا إليها شيئًا من الحياة الفكرية التي كانت بالإسكندرية منذ عهد بطليموس؛ إذ كان أهم الدراسات بالإسكندرية استرضاء الحكَّام وإشباع غرورهم بإسناد الفضائل كلها إليهم وإلى أجدادهم؛ بَيْدَ أنَّ دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم ذريعة للوصول إلى غرضهم، فأدخوا في الدين ما وصلت إليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات، وآراء هرمس الحراني، وغيرها من الآراء القديمة، وذلك كله لإسباغ الفضائل كلها على الأئمة من أهل البيت، فكأنهم قالوا بحرية الفكر إلى أبعد مدى هذه الحرية، ولكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة.

وكانت هذه الحرية الفكرية سببًا في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر، وظهور عدد كبير من الفلاسفة على نحو ما ذكرنا من قبلُ، ولكن هذه الدراسات الفلسفية كانت في أغلبها تتتبع عقائد الفاطميين، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد مثلًا كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان، ويغلب على ظني أن الفاطميين لو لم يدينوا برؤية الهلال رؤية استبصار وعلم، لما ازدهرت هذه الألوان من الدراسات.

وروينا أن مصر الفاطمية شاهدت دراسات أدبية عربية، ولكننا نلاحظ أن هذه الدراسات مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق عليها، دون أن تنتج مصر شيئًا جديدًا، وهذا ما كان أيضًا في مصر إبان ازدهار

مدرسة الإسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعر هوميروس، ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم، دون أن يكون للدراسات الوجدانية أثر قوي في هذه الدراسات التي قوي فيها عمل العقل والآراء العلمية، أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التي تُستوحى من نفسية الشعب؛ ولذلك تتفق الدراسات الأدبية في العصر الإسكندري مع العصر الفاطمي في أن هذه الدراسات لاتظهر فيها شخصية مصر، وكذلك في المزاوجة بين الدراسات الأدبية الخالصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتعبيراتها، ومن هنا نرى سبب هذا التعقيد في أسلوب الدعاة والعلماء، حتى يُخيل إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن التعبيرات الأدبية التي تتمثل فيها البساطة والذوق الموسيقي والعاطفي في اللفظ والمعنى، ولكن الدعاة والعلماء في العصر الفاطمي حشوا كتاباتهم بالتعبيرات الفلسفية، واستعملوا مصطلحات اضطروا أن ينحتوها من ألفاظ عربية، وأن يتلاعبوا بقواعد الصرف المعروفة، فجاءت كتاباتهم غريبة عن الأسلوب العربي. حقيقةً حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستعيدوا الأسلوب الأدبي، وأن يبتعدوا عن تعقيدات الفلاسفة؛ ولكنهم وجدوا مشقة في تعبيرهم، وصعوبة في صناعتهم؛ فاضطروا إلى استخدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليفتنوا الجماهير بالزينة اللفظية، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيدًا ليقعوا في تعقيد آخر، وهذه الشروح والحاشيات التي وُضعت حول النصوص القديمة، احتاجت هي نفسها فيما بعد إلى شروح وحواش أخرى لتوضيحها وتقريبها إلى المتعلمين، وهكذا كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلمية على الأساليب العربية.

على أن هذه الظاهرة لم تكن في مصر فحسب؛ بل كانت في جميع الأقطار الإسلامية منذ عرفت هذه الأقطار هذه العلوم التي عُرفت بالعلوم الدخيلة، ومنذ أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن

آرائهم، ودحض رأي خصومهم، ومَن يدري لعل هؤلاء العلماء تعمَّدوا تعقيد أسلوبهم حتى يقال عنهم إنهم علماء، وها هو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعمدوا التعقيد فيقول: «قلتُ لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلِمَ لا تجعل كُتُبَك مفهومة كلها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدِّم بعض العويص وتؤخِّر بعض المفهوم؟ فأجاب: أنا رجلٌ لم أصنع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قَلَّتْ حاجات الناس إليَّ فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم؛ لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكسُّب ذهبت»(١).

ومهما يكن من شيء، فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وألوانها وفنونها، وتعدَّدَتْ مراكزها في مصر، وكانت حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة والفسطاط وفي الإسكندرية وتنيس في الشمال، وفي أسوان وقوص وقفط في الجنوب، كما كان أمراء الأقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء، وها هو ذا عمارة اليمني يحدِّثنا في «النكت» عن بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم؛ فالحياة العلمية كانت مزدهرة في مصر الفاطمية، وعن مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق، فلا غرو إن قلنا: إن مصر الفاطمية كانت بدءًا للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية، تلك الزعامة التي لا تزال مصر تحمل لواءها إلى الآن.

(١) الحيوان للجاحظ: ج١، ص٤٥، (طبعة الساسي).